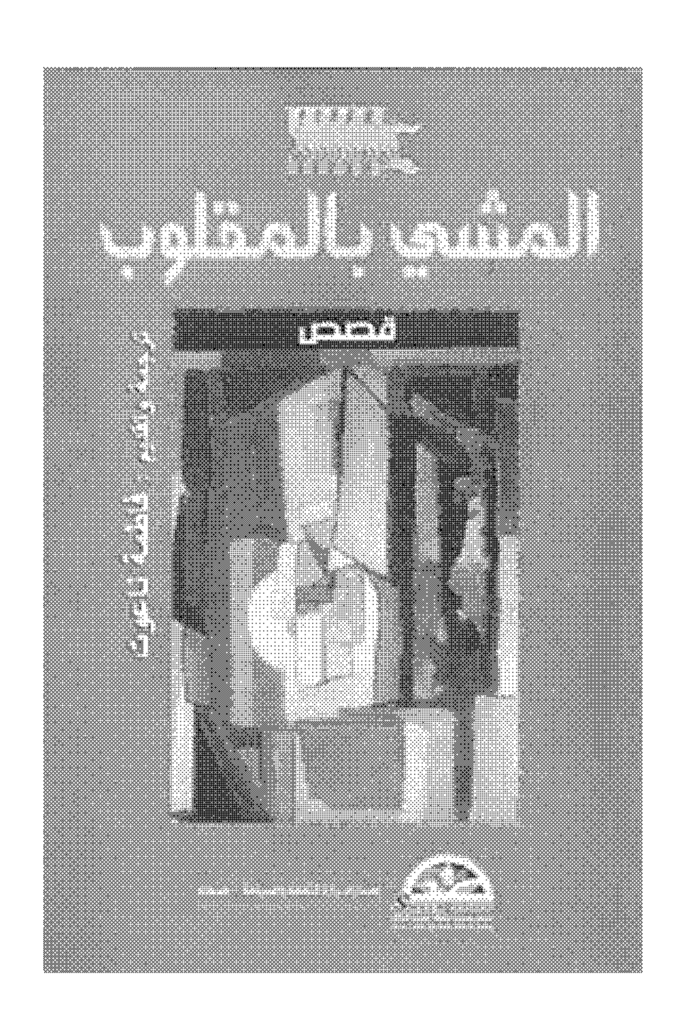

المشي بالمقلوب
قصص
ترجمة وتقديم: فاطمة ناعوت

المشي بالمقلوب

قصـــص

ترجمة عن الإنجليزية

فاطمة ناعوت

إلى صنعاء

حيث جمال المكان وجمال البشر.

فاطمة ناعوت



تصدير المُترجِمة

يلتقي القارئُ في هذه المجموعة بإحدى عشر قصة. تسعٌ منها للقاص الإنجليزي المعاصر "جون ريفنسكروفت"، *John Ravenscroft* ، واثنتان طويلتان؛ واحدة للقاص والروائيّ الأمريكي "شيروود أندرسون" *Sherwood Anderson*، والأخرى للروائيّ والقاص والشاعر الأمريكي أيضًا "جيسي ستيوارت *Jesse Stuart*".

خلال مجموعة القصص الأولى لريفنسكروفت، وهو قاص إنجليزيّ معاصر يعمل ضمن أسرة تحرير مجلة "كادينزا" وحصد مجموعةً لا بأس بها من الجوائز بينها جائزة الكومنولث، تتجلى ملامح منهجه السرديّ الذي يمتاز بالتقاطه دقائق الحياة غير المُلفتة واقتناص الشعرية منها عبر الموقف الدراميّ والصورة التشكيلية والنقلات المباغتة والمفارقة.

يستلهم مفردات تأملّه من (الشيء) ومـــدى تـــأثّره بـــ/ وتأثيره على (الإنسان)، بوصف المرء والموجودات في حالٍ دائم من الجدل. يناقش أزمة الإنسان عبر مواقف حياتية تبدو بسيطةً وبديهية، بل تكاد تكون يوميـــة غيـــر مُلفتةً، لكنه ينجح في اقتناص العمـــقِ الوجـــوديّ منهـــا والمحنة التي تعانيها شرائح محددة من البشر؛ قد تنسحب خصائصها على غير الأسوياء أو المنقسمين على ذواتهم من البشر، أو هؤلاء ذوي الحساسية الشفيفة، أو شـــريحة الفنانين، أو البشر في مراحل حيـــواتهم الأخيـــرة حـــين تتكشف لهم الحياة كاملةً مثل كتابٍ انتهت قراءتـــه للتـــوّ، هؤلاء المعمّرين في جدلية وَهَنِهم الفيزيقيّ وحدّة بصرهم الرؤيوي. أو نقيض ما سبق تماما، أي الإنـــسان تقريبـــا، الإنسان قبل أن يكتمل أي الجنين ورؤاه المستقبلية. وكـــل تلك الشرائح السابقة – في زعمي – تلتقي كثيرًا وتتقاطع، أو أنها مرايا للنفس البشرية في أصفى حالاتها وأكثرهـــا أثيريةً وبُعدًا عن الأرض. وبديهيّ– والحال هكذا – سوف

يشغله كذلك عالم الحيوان بكلِّ ما يحملُ من ضعفٍ وقوّة، في آن، وخصائصَ وجوديةٍ جديرة بالتأمّل والإنصات.

يجمع أسلوبه بين اللغة الإنجليزيـــة (البريطانيـــة) الرفيعة وبين التعبيرات الدارجة الحديثة في نقلاتٍ بارعة لا نتوءات حادةً فيها تعرقل استرسال التلقي ولا إثقالَ من أيٍّ منهما على الأخرى. ويجمع كذلك بين الجُملة الطويلة التي تزخر بالجمل الاعتراضية، وبين الجملـــة القـــصيرة المباغتة التي تشبه الومضات أو الطلقات التي تحملُ قدرًا من إثارة النص حينًا، وفي حين آخر تحمل شـــحنةً مـــن الصدمات التي تحوّل وتبدّل من مسار الاتجـــاه الفكـــري للقارئ الذي كان ركن إليه قبل لحظة بمعرفة الكاتب.

ومثل كثيرين من كتّاب القصة القصيرة الحديثـــة، يبدأ ريفنسكروفت نصَّه من منتصف الموضوع، أو ربما من نقطة الذروة، ثم يبدأ في لملمة الزمن من الأمام ومن الخلف حتى تكتمل قصاصات الصورة المشهدية في آخر سطرٍ ربما.

ويقودنا هذا إلى الكلام عن النهايات (وهو مأخذي الوحيد على هذا القاص المميّز)، فهو أحياناً – برأيي الخاص – يُثقل النهاية بإيضاحٍ قد يفسد جمال ورهافة الوقفة المفاجئة التي تدع للقارئ ثغرةً يدخل منها إلى فضاء التأويل ولا تغلق النص على أحادية التلقي، الأمر الذي يحرم القارئ من متعة الارتطام بالمفارقة وتؤدي إلى استلابه لذة الصدمة.

ولا تخلو قصص ريفنسكروفت من ومضات من الواقعية السحرية واستجلاب الميتافيزيقا أحياناً (كما نلمس في : داخل رحمٍ مُنتظر – النبتة الصغيرة)، أو الاتكاء على الحُلم بكل ما فيه من فانتازيا (كما في : المشي بالمقلوب)، إلى جوار الواقعيّ والمتعيّن الممسوس بخيطٍ من الرومانسية أحياناً (مثلما نجد في :البومة) تلك القصة الحافلة بكثير من الصور الشعرية وكثير من أسباب الشجن الإنسانيّ. كلُّ تلك الخيوط التي ينجح

ريفنسكروفت في غزل نسيجه عبرها تجعل من تجربته مشروعًا أدبيًّا متنوعًا وثريًّا.

***

القاص الثاني الذي تناولنا عملا له بالترجمة في هذا الكتاب هو الأمريكي "شيروود أندرسون" (1874-1941). وقد كان في وقته روائيًّا ذائع الصيت، بل يعدُّ – حسب النقاد – أستاذًا لرموز بارزة مثل آرنست هيمنجواي ووليم فاكنر، أو لنقل إن الكثيرَ من أعماله الشهيرة كان لها أثرٌ واضح تجلّى في أعمالهما.

ويعدُّ أندرسون أحد رواد المدرسة الواقعية في القصة الأمريكية، التي استلهمت مفردات عوالمها من لغة الحياة اليومية، تلك المدرسة التي كانت سائدة في فترة ما بين الحربيْن العالميتيْن.

جدير بالذكر أن هذا الروائي قد استعاد شهرته (التي خفُتَت بعد رحيله عام 1941)، في السبعينيات من القرن الماضي حين انتبهت مجموعة من النقاد والأكاديميين إلى مشروعه الذي كاد يطمره التاريخ وأعادوا استكشاف مناطق مهمة جديدة في بعض تجاربه مثل : "قصةُ راوي قصةٍ " عام 1924و " طفولةٌ نصفُ غربية " عام 1926 و "ذكرياته" عام1942، و "رسائل" عام 1953 . ومن ثم أُعيد طباعتها تحت عنوان " أعمال شيروود أندرسون الكاملة".

يحفل مشروع أندرسون الأدبي بهموم البسطاء من القرويين وبني الطبقة الفقيرة: أحلامهم البسيطة وإحباطاتهم وكفاحهم المستدير من أجل الحق الأول للحياة. وكذلك جنوحهم أحيانا صوب الجنون من أجل ابتكار وسائل تحقّقٍ وسعادة عوضًا عن الطرائق التي يجنح إليها بنو الطبقات الثرية. تماما كما نرى في قصته الفاتنة "انتصار البيضة" – التي قمنا بترجمتها هنا – وكان كتبها عام 1921، وفيها يصوّر انغماس قرويٍّ بسيط في

عالم (الدجاج والبيض)، وبناءه مشروع حياة كامل عبر جدلية الكفاح من أجل أن يجعل البيضة تقف على جانبها المدبب، عكس قوانين الفيزيقا وعكس منظومة تشريح البيضة التي معها تستحيل تلك الفرضية. وربما سبب اختيارنا ترجمة تلك القصة هو ما نلمسه – في زعمي الخاص – من إسقاطات اجتماعية وسياسية حول طبيعة حياة هؤلاء البسطاء وهروبهم من واقعهم عبر قرار تغييب (ذاتي) يجنّبهم آلام تأمل الواقع المرير فضلا عن محاولة الشروع في إصلاحه.

***

الكاتب الثالث الذي تعرضنا له في هذه المجموعة هو الأمريكيّ "جيسي ستيوارت" (1906- 1984) ، وهو روائي وشاعر وقاص ذائع الصيت في وقته. وله الكثير من الإصدارات الشعرية والمجموعات القصصية وفاز بالعديد من الجوائز.

ونلمس في قصته الطويلة أو النوفيللا التي قدمناها هنا :" شجرة الكرز المشقوقة" ، حال الصراع الدائم بين الأجيال، والأزمات التي تسببها سطوة الأب البطريركية والتي تتجلى على نحوها الأشد سلبًا بين طبقة الفقراء أو بسيطي العلم. ومن خلال تلك القصة نتعرف على طبيعة الحياة في الجنوب الأمريكي سيما شرائح المزارعين في تلك الحقبة.

النوفيللا، كاملة، مكتوبة باللغة الدارجة الجنوب- أمريكية، بل بلغة السوقة والرعاع خاصة في خطاب الأب تحديدًا (غير إني ترجمتها بالفصحى بطبيعة الحال لتجنّب الوقوع في تباين اللهجات).

القصة على شكل حوار بين الأب وابنه، وبين الأب والبروفيسور الذي يقوم بتعليم ابنه. ونلاحظ النقلات والتباينات النوعية البيّنة بين طبيعة خطاب طبقة المزارعين المتمثلة في الأب من جهة، وبين خطاب الشريحة المثقفة المتمثلة في البروفيسور، وبين خطاب

الشريحة (الحائرة): الابن ، تلك الشريحة الواقفة على خط التماس – إن جاز التعبير – بين العلم والجهـل، وبـين عالمين متناقضيْن سوسيولوجيًّا أحدهما عالٍ (المدرسـة) والآخر بـسيط (البيـت)، ونلمـس تلـك الـصراعات والموازنات التي يجتهد الولد أن يأتيها طوال الوقت مـن أجل ألا يخسر أيًّا من العالميْن.

***

المبدعون الثلاثة الذين قمتُ بترجمة بعض أعمالهم هنا ينتمون إلى ثلاث حقب زمنية متباينـة : أول القـرن العشرين ومنتصفه ونهايته. وأرجو أن أكون قد نجحـت في إبراز الخيط الرهيف الذي يربط بين الإحـدى عـشر قصة التي ضمّتها دفتا هذا الكتاب، وهو الخيط الذي ربما حدّد اختياراتي لتلك الأعمال ومن ثم ترجمتي لها.. إنـه الإنسان. عبر رحلته الطويلة فوق هذا الكوكب.

لكن أي نوع من الإنسان كان بطل تلك الحكايـــا ؟
هل هو البطل المنهزم ؟ المنقسم ؟ المنشق على طبقتـــه ؟
غير المتحقق ؟ المعمّر الذي ينتظره الموت ؟ الجنين الذي ينتظره الميلاد ؟ السجين ؟ الهارب إلى الحُلم ؟
أم أن البطل هو عين الفنان الراصدة لذلك الإنسان؟

ربما عبر هذه المجموعة يمكننا أن نقف على إجابةٍ للسؤال التالي :
كيف عبّر قلم المبدع عن محنـــة الإنـــسان عبـــر الزمن؟
هل تغيرت رؤية المبدع للوجود ؟ أم أن الذي تغيّر هو شكل التعبير عن تلك الرؤية ؟
هل تباينتْ أزماتُ الإنسانِ منذ بداية القرن الماضي وحتى نهايته ؟

خلال فترةٍ خاض خلالها حربيْن كونيتيْن، وتغيرت ملامح الخارطة، فترة صنع فيها الإنسان وعاش تحوّلاتٍ سياسيةً واجتماعيةً وتكنولوجيةً وثقافيةً وفكرية، قرنٌ من

الزمان نشأت خلاله مدارس فكرية- سياسية –اجتماعيــة وانهدمت أخرى، كيف تبدّل الإنسان وكيف تبدّلت همومه وأحلامه ؟

والأهم من ذلك كيف تبدّلت العينُ الراصــدةُ لــه : عينُ المبدع ؟

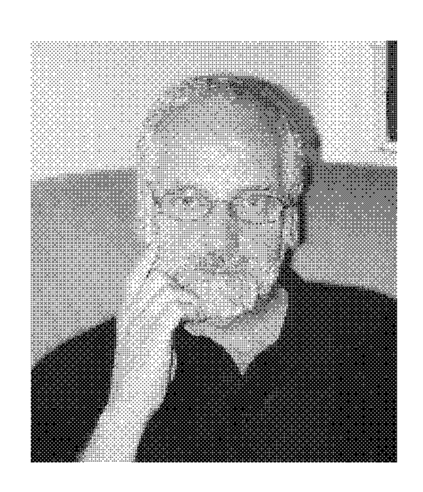
فاطمة ناعوت

القاهرة – يونيو 2004

***

جون ريفنسكروفت

John Ravenscroft



* قاص وروائي إنجليزي معاصر ولد عام1954 في بريمنجام بإنجلترا ، يعيش في " لينكون شاير" بالمملكة المتحـــدة. يشارك مع آخـــرين فـــي تحريـــر مجلـــة "كـــادينزا" Cadenza Magazine. له العديد من الأعمـــال مثـــل (نبتـــة صـــغيرة – المشي بالمقلوب- هديةٌ مـــن أجـــل بـــاكو - أحـــوال المـــادة- البومة–الجين المدمر – الزنبقة المدهشة. وغيرها)

حاصل على عدة جوائز من بينها جائزة الكومنولث.

قنـــصُ الياسَمـــين

في السَّرير رقم 6، ترقدُ في صَمَتِها، الفتاةُ الحزينةُ " ياسمين" . هكذا أُدعى أنا أيضًا. لكنَّ الأســـماءَ محـــضُ نعوتٍ قشرية، تطفو كالزبَدِ، متأرجحةً فوق سطح المـــاء. غير أن أمورًا أكثر عمقًا و أصالةً كانت تربطُ بيننا . تلك الأمور التي جعلتْها ترتاحُ إليّ وحدي، والتي جعلتنـــي لا أقضي يومَ عطلتي إلاّ إلى جوارها.

كان اليومُ صعبًا. عنبرُ المستشفى يئنُّ بالمرضـــى، الأمرُ الذي جعلَ نهاري كلَّه مـــشحونًا بالعمـــل : تفريـــغُ السلال جوارَ الأسرّة، ملءُ نمـــاذجِ التقـــاريرِ الخاصـــةِ بالمرضى، تبديلُ الضمادات و تغييرُ الملاءات . و أخيرًا، في نهايةِ اليومِ تقريبًا، تمكنتُ من اقتناص بـــضعِ دقـــائقَ لإعدادِ فنجانٍ من القهـــوة، أخذتُـــه إلـــى حيـــث المقعـــدِ

البلاستيكيّ برتقاليّ اللون جوار سـريرِها. كـم أشـعرُ بالامتنانِ لتلك الدقائق التي أنعم فيها بصحبة تلك الفتاة.

- " ياسمين، كيف حالك ؟ "

أقولها، وكأنني أرحبُ بنفسي. غير إنها لم تـرد. " ياسمين" لا تردُّ مطلقًا في الواقع، كانت تمرُّ بحالةِ اكتئابٍ أخذتْها حتى العمق . كانت " ياسمين"، مثلـي تمامًـا، إحدى ضحايا البحر.أنا أيضًا كنتُ ابنةً لأحد الـصيادين، ربما من أجل هذا، تخرج الكلماتُ من فمـي متقطعـةً و خاطفة، مثل طُعْمٍ في سنارة صيد.

أصبُّ الكلماتِ في أذنيها، ثم أتخيلُها تغطـسُ فـي عمق الماءِ الباردِ داكنِ الزرقة . هكذا كـلَّ يـومٍ، ألقـي كلماتي عميقًا صوب الأسفل، تمامًا حيث ترقد صديقتي.

- " كان يومي مشحونًا، لم يكن لدي متسعٌ مـن الوقت لفعل شيء ."

قلتُها، بينما أمسحُ بأناملي على شعرِها .

مع فتاةٍ كهذه، يكون من الصعبِ جدًا مقاومةُ لمسِها. كانت " ياسمين" من هؤلاء النساء ذوات الجمال شــديد الندرة . من أجل هذا، كان الناسُ يختلقون الأسبابَ مــن أجل المرور في فضائِها . أكثــر مــن مــرةٍ ضــبطتهم يشربونها، يمضغون تفاصيلها . كانوا جميعا "باراكودا "[1].

حتى الممرضون الذين يدفعون المقاعدَ المتحركــةَ ذات العجلات، لابد أن يبطئوا، حدَّ الزحف، حين يقتربون من سريرِها. الزائرون المتجوِّلون ذوو العيون الجــسورةِ الجشعة. الأطباء، الذين يتوقفون فجــأةً، بغيــر مبــررٍ، يسحبون الستائر الشفيفة الحاجبة للضوء، ثــم يختبــرون مجددًا أشياءَ ليست في حاجةٍ إلى اختبار .

1 نوع من الأسماك الضخمة (ت)

الجمالُ الباهرُ هو الشيء الذي لم نتقاسمه سويا، "ياسمين" و أنا، غير إني كنتُ سعيدةً بذلك.

- " والدك قد يأتي في أي وقت،" قلتُ لها ." قالَ الأسبوع الماضي أنه سوف يأتي ."

لم تقل " ياسمين" شيئًا. فقط ارتجفَ جفنُ عينِها اليسرى، أو هكذا خُيِّلَ إليّ.

مرَّ شهران منذ وقعت تلك الحادثة فوق قاربِ الصيدِ الخاص بأبيها . الحادثةُ الذي أدَّتْ إلى سقوطِها من القارب إلى البحر، لتغورَ في عمقِ الماء، ثم تشتبكُ أطرافُها في خيوط شبكة الصَّيد . مرَّ وقت غير قليل قبل أن يكتشفَ الأمرَ أحدٌ، ثم بدأ الزعرُ والفزعُ والاضطراب. نجحَ أبوها في تخليصِها و انتشالِها فوق متن القارب، ثم أبحر صوب القرية . حين وصل أخيرًا، حملَ إلى الشاطئ ما كان يظنّه جثمانَ ابنته .

– " ياسمين !" . هكذا كنتُ اهمسُ . كنت أريدُها أن تلتقطَ الاسم و حسبْ. اسمها واسمي، الذي يشبه طُعمَ الصيد. كنت أريد أن يخترقَها الاسمُ، أن تبتلعه هي كما سمكةٍ و طُعْمٍ يصادفُها.

لحسن الطالع جاء طبيبٌ شاب إلى قـــريتهم ذلـــك الصباح، ليزورَ أقاربَ له بالجوار. كان هو من اســـتعادَ الفتاةَ الغريقةَ من حافةِ الموت، وكـــان هـــو أيـــضًا مـــن أخبرني بقصتها : " فتحتْ عينيها، نظرت إلى أبيها وقالت كلمةً وحيدة، ثم غرقت من جديد، لا في الماء ثانيةً، بـــل في الغيبوبة القاتمة."

" باراكودا ". كانت هذه كلمة " ياسمين" الأخيرة.

حين جاء أبوها، مسح على شعرها، قبّلَ وجنتها، ثم جلس على المقعد البلاســـتيكي برتقـــاليّ اللـــون جـــوار سريرها، أخذ كفّها بين راحتيه. تماما مثل أبـــي، الكـــفُّ ذاتُها، البُنيّة الضخمة التي خشّنتها الحياة، تلك الكفُّ التي

تُميزُ الصيادين التعساء . هو أيضًا تفــوحُ منـــه رائحـــةُ البحر، يتظاهر بأنه على ما يرام، ياللرجل البائس !

" ياسمين" . كم تشبهني هذه الفتاة ! قواسمُ كثيـــرةٌ بيننا، وكأننا كيانٌ واحد. أتذكّرُ تلك الصباحاتِ البـــاكرة و شعري الذي يُمَسُّ كي أستيقظ، ثـــم يرفعنـــي أبـــي مـــن سريري نصفَ نائمةٍ، يحملني بين ذراعيه، يلقيني فـــوق قاربه، ثم يبحرُ .

أسترجعُ صوتَه الخشنَ في مسمعي، وأسترجعُ يـــدّه الخشنةَ فوق جلدي، لم أرغب في الذهاب أبدًا، لكنني كنتُ محضَ طفلةٍ، وكان هو أبًا، يفعل ما يريد.

أتذكّر الماءَ المـــالحَ، الـــشمسَ الحارقـــة، الزرقـــةَ بدرجاتِها، وأمي، التي ترتعدُ هناك فوق الـــشاطئ فيمـــا يصغرُ حجمُها شيئًا فشيئًا كلما ابتعـــدنا . أتـــذكّرُ ألـــواحَ

القاربِ الخشبيّ وصــخرةَ التثبيــت، أتــذكَرُ صــرخاتِ النوارس و احتجاجَها.

- " ياسمين، لديك حياةٌ في داخلك، حياةٌ كاملــة، ألا تسمعينها تناديكِ ؟"

لا شيء أبدًا .

صُفقَ بابُ العنبر بشدة، لمحــتُ والــدَ " ياســمين" يمشي صوبنا، حاملا باقة زهورٍ، وابتسامةً. ابتسامةً مــن اجلي.

حتى في الموت، الطفلةُ الكامنةُ داخلي ترى ابتسامةَ أبي. " ياسمين" كذلك، لابدّ ســترى الابتــسامةَ ذاتهــا، ابتسامة هذا الرجل بالتحديد، الرجلُ الــذي يحمــلُ باقــةَ زهور، ويمشي صوبنا.

وقف جوار سرير ابنته، مسحَ على شعرها، بينمـــا شيءٌ يمور بقوة في داخلي .

حدّقت في وجه " ياسمين"، وظللت أنتظر اختلاجةً من جفن عينها اليسرى.

***

أغنية من أجل "جيني"

كان "توم" يتجه صوبَ غرفةِ المعيــشة، بحــرصِ رجلٍ عجوز يحملُ صينيةَ شاي، حين سمع "جيني" تتكلم. توقف فجأةً حتى أن صحن البسكويت وفنجــانيْ الــشاي جميعها انزلقت إلى الأمام واصطدمت بحاجز الــصينية. بعض الشاي تناثرَ داخل طبق الفنجان، فوجد نفسه للحظة يحملقُ في الفوضى، قبل أن يرفع رأسَه لينظــرَ، عبــر الغرفة، إلى زوجته.

كانت "جيني" تجلس على الأريكة ذات المقعــدين، تماما كما تركها، لكنه لمح الاختلاف واضحًا في عينيها. كانتا منتبهتيْن، مشتعلتيْن بذكاءٍ مشوّش، وكانــت تنظــرُ نحوه مباشرةً، بدت حاضرةً على الحال التي لم تكنْها منذ

شهور. لقد حدث الأمرُ مجددًا، بينما كان في المطبخ يعدُّ الشاي، حدث مجددًا.

فتح فمه ليتكلم، لكن كلمةً لم تخرج. رأى "جيني" تمسح على تنورتها، ولاحظ ومضةً زرقاء على الأرض جوار قدمها اليسرى. إحدى فردتيْ قرطها. أصلحَ حنجرته وحاول من جديد.

- " جيني؟ "

برقت عيناها وركزت، ثم رمت نظرةً على الصينية.

- " لقد سكبتَ الشاي يا توم."

نظر إلى الأسفل مرة أخرى، ثم إلى الأعلى، أحسَّ بشفتيه تناضلان من أجل ابتسامة ما.

- " نعم فعلتُ يا حبيبتي. هكــذا فعلــتُ. وأنــتِ أسقطتِ إحدى دلايتيْك."

عَبَرَ الغرفة، ووضع الصينية المرتبكة ذات الصليل فوق مائدة القهوة، ثم انحنى ليلــتقط قِرطَهــا. طقطقــتْ مفاصلُ فخذه عاليا وهو يعتــدل، وكــذلك حــين جلــس جوارها، غير إنه لم يلحظ تقريبا. "خُذْ الأمرَ بهدوء"، هكذا قال لنفسه. خذه بهدوء وبطء وثبات.

خطفتْ "جيني" القرطَ من راحته.

- " لقد انخلعَ،" قالت فيما تريح يــدها الأخــرى فوق رسغه. نسي تقريبا كــم كــان صــوتها جميلا، كم كانت لمستُها رقيقة. قبل كل تلــك الشهور.
- "هل حدث ذلك الآن، هذا لا يمكن أن يكــون، لقد كلفني الأمر وقتًا طويلا هذا الصباح كــي أجعلك تبدين على هذا النحو الجيّد، وها أنــت

تفسدين كلّ شيء، دعوني أضــرب ظهرهــا عقابا لها، إيه؟"

عقص شعرها خلف أذنها، وشبك قرطها في مكانه من جديد. ابتسمت له وبدت وكأنها ستتكلم، لكنها قطبّــت حاجبيها وتلاشت ابتسامتها. وجدها خاوية وغائبــةً مــن جديد، يدها ترتفع في الهواء وتبقى هناك، تحوِّمُ في حيرة. ثم فقاعّة من اللُّعاب تنتفخ فوق شفتها السفلى. سحب "توم" منديلا نظيفا من جيبه ومسحها.

- "جيني؟" قالها بهدوء. "جينــي حبيبتــي، هــل تسمعينني؟"

سيلٌ من قطرات العرق تشكلّت كحبّات الخرز فوق فوديْه فيما ينتظر إجابتها. شعر بالدماء تخفق في عنقــه. مغلقًا عينيه، أخذ يصلي من أجل أن يعود الضوءُ الهارب إلى عينيها.

كان لابد أن يلحظ هذا الصباح، حين كان يساعدها كي ترتدي ملابسها. كان من الواضح أنها أفضل من المعتاد، يكفي أنها اختارت فستانا بعينه من بين العشرين المعلّقة في خزانتها. كان مسرورا، لسبب ثانويّ هو أن ذاك الفستان كان المفضل لديه، أصفر باهت وعليه طباعة بالأزرق الخفيف، أما السبب الرئيسي فلأنها بدت وكأنها تذكرت أنه المفضل لديه. كما أن عملية إدخالها فيه كانت أقل صعوبة من المعتاد. وفيما عدا العقبة الوحيدة، حين أصرّت على إدخال قدمها اليمنى في حذائها الأيسر، ويسراها في الأيمن- وبالطبع لم تستطع أن تسير على هذا النحو - فانكفأت على السرير واستطاع "توم" أن يبدلهما، باستثناء ذلك لا عقبات على الإطلاق.

فتح عينيه، ورمق قدميها في الأسفل، وخاف أن ينظر إلى الأعلى، لم يُرِدْ أن يلتقي بذلك الخواء المفرّغ الرهيب. كان يفكر أن هذا الحذاء اللطيف، حذاءٌ محظوظ. كانت تلبسه حين حدث ذلك الأمر آخر مرة.

- " توم ؟"

ارتجفت رأسه لأعلى. لقد عادت، النور في عينيها مرتعشٌ وغيرُ واثقٍ مثل لهب شمعة في نسمة ليل، لكنه كان هناك برغم هذا. ركزت بصرها عليه، طوّحت يدها لأسفل وأراحتها من جديد فوق ذراعه.

- "الصورة يا توم، أريد صورتهم."
- " أي صورةٍ يا طفلتي؟ أيُّ صورةٍ تعنين؟"

نتشتْ كمَّ قميصه وهزّته، كما كانت تفعل أحيانا من قبل حين كان يبدو غبيًّا وغير متجاوب على وجه التحديد.

- " أنت تعلم! صورتهم وهم يرقصون! يرقصون من أجل جيني البائسة!"

عرفَها، عرف الصورة فورًا.

- " إنها في الطابق الأعلى يا طفلتي. في أحد ألبوماتك." لم يجل بخاطره أنَّ عليه أنْ يتركها.

- " هل تريدينني أن أحضرها لك؟"
- " نعم. الصورة."

انتصب مترددا على غير إرادته.

- " فقط ابقي كما أنتِ الآن، سأعودُ حالا."

كانت أمتعتها محزَّمة، مثل عتابٍ صامتٍ أنيق، تنتظر جوار الباب الأمامي. لم يحاول أن ينظر إليها، بدلا من ذلك راح يحدّق في الساعة المثبتة على الحائط في قاعدة السُّلَّم: 4:10 بعد الظهر. موعد "ديفيد" في الخامسة تماما. خمسون دقيقة إذن هي كل ما تبقى.

ترك باب غرفة المعيشة مفتوحا كي يتمكن من رؤية "جيني". أما هي فقد التفتتْ لتنظر إليه، صانعةً بيديها تلويحات تستحثه، بنفاد صبر، على المُضيّ. ابتسم لها، وبدأ رحلة الصعود الطويلة إلى حيث غرفة نومهما، بينما مفاصله تصطك مع كل خطوة.

سوف يأتي "ديفيد" في وقته بالطبع. اعتاد أن يكون دقيقًا في مواعيده، حتى حين كان صبيًّا. لم يكن هناك داعٍ للقلق مطلقا من أن يفوته باص المدرسة، وحين كان أكبر سنًّا، لم يخلف وعده إذا قـال إنـه سـيهتم بالحديقـة أو سيأخذهما للخروج في نزهة. طبيعته المتزنّـة والعمليّـة أفادته كثيرا. كانا دائمًا فخوريْن بأسلوب تناوله لأعمالـه وجعلها تسير في طريقها، حتى في أوقات الركود. وكان ديفيد على حق بالطبع. دار "شجرة الأرز" للمسنّين كانت الحلّ العمليّ الوحيد. جادل "توم" ضد ذلك طويلا وبصوتٍ عالٍ ،لكن "ديفيد" كان مقاومًا ومصرًّا على رأيه.

- " أبي، أنت نفسك لم تعد سليما كما كنت، وأمي سوف تتدهور حالها إلى الأسوأ كل يوم، لـن تتحسن أبدًا. هذا هو الخيار الأصوب بلا شك. ويمكنك زيارتها كلما أحببت. ولا داعي للقلق بشأن الرسوم. سوف أعتني بالأمر كله."

لقد صمد. صمد وقاوم لأسابيع. إلى أن كانت الليلة التي صحا فيها على صوت الأجراس ليجد نفسه وحيدا في الفراش. لم ينس مطلقا تلك القفزة المسعورة صوب الباب الأمامي(مفصل فخذه ظل يصرخ بسببها فيما بعد). مشهد "جيني" وهي تمشي في الحديقة لا ترتدي سوى معطف السيد "داوسون"، والعلامات الدامية التي تركتها قدماها على أرضية المدخل، ومشهد ارتجاف جسدها في البرد – كان قلبه على وشك الانخلاع.

"ديفيد" على حق. هذا هو الحلُّ العمليّ والأنسب فعله.

رغم ذلك، حين وصل "توم" إلى أعلى درجات الدرج وراح يترنح صوب غرفة النوم، وجد نفسه يتمنى للمرة الأولى في حياته أن يتأخر ابنه عن موعده.

ألبومات الصور – "جيني" ملأت العشرات منها خلال السنوات– كانت مكدسة فوق رفٍّ أسفل النافذة.

جميعها مؤرخةٌ بخطِّها الأنيق والمنتظم الذي كان لــديها دومًا. لم يأخذ "توم"الكثير من الوقت ليجد الألبــوم الــذي يريد. فتحه وبدأ يقلّب صفحاته. الصورة التــي أرادتهــا "جيني" كانت في منتصف الألبوم تقريبا. أخرجهــا مــن غلافها البلاستيكي وأخذ طريق العودة للأسفل.

الرابعة وخمس عشرة دقيقة.

شاهدته "جيني" يعبر الغرفة، ثمة تعبير على وجهها لم يستطع قراءته. جلس جوارها وعرض عليها الصورة.

- " هذه يا جين؟"

أومأتْ، أخذتها منــه وقبــضت عليهــا بأصــابعَ مرتعشة. حين نظرت إلى الأعلى كانت عيناها مبتلّتــيْن بالدموع.

- " أوه يا توم! انظر! كانوا صغارًا جدا! صغارًا جدا!"
- " أعلم يا حبيبتي، أعلم."

كان حفل عشيّة الكريسماس، هو يتـذكر. فريـق "الأخوة دائما" يغنون أغنية " جيني البائسة". كلما أُذيعـت في الراديو كانت "جيني" تغني معها، وتريد أن تـرقص. "توم" كان يرقص لإسعادها، ويشعر بنفسه قويًّا واثقًا مـن نفسه.

- " صغارٌ جدا."

طوّقها بذراعه، وجلسا ينظـران إلـى نفـسيهما، يرقصان "الـروك آنـد رول"[1]، بـين بالونـات الجليـد والطراطير الورقية، يضحكان عاليا في الـصورة التـي طال نسيانُها. برهافةٍ، وبصوتٍ أعلى بالكاد من همـسة، شرعت "جيني" في الغناء.

---

[1] Rock and Roll

" حسنًا، جيني لديها أخٌ، وهو عنيف يتعقبني
أينما ذهبت، أبوها يريد أن يطردني خارج
البلدة في شاحنة،
أتمنى أن أظلَّ هناك حتى تخرج "جيني" من
المعتقل، جيني البائسة ...."

أرخت رأسها على صدر "توم" الذي أخذ يهدهدها برقّة. حين تكلمت ثانية كانت همهمةً خافتة داخل قميصه.

- " تلك الأشياء. تلك الأغراض جوار الباب. هل تخصّها[1] يا توم؟"

أجابها بكلماتٍ متكسرّة وغير واضحة.

[1] تقصد جيني، التي في الأغنية وفي ذات الوقت تقصد نفسها، وتتكلم بضمير الغائب لأنها في حال انفصال لحظيّ. (ت)

- " نعم يا حبيبتي." أحسّ أنها أومأت. " إنه مكان رائع وفسيح، كما تعلمين. سوف تقضي "جين" أسعد أيـــام حياتها قبل أن تستوعبه!"
- " هل (ديفيدهم)[1] سوف يأتي الآن؟"
- " أجل، يا حبيبتي، بين لحظة وأخرى."
- " هل ستبدو هي ... هل سأبدو أنا ... لطيفـــة فـــي عينيه؟"
- " لطيفة" ليستْ الكلمة المناسبة، تبدين كقطّة مدللـــة. جميلة مثل لوحة."

رفعت رأسها وابتسمت، وفيما ينظر فـــي عينيهـــا، فيما ينحني ليقبلّها، لمح النور يرتعد ثـــم ينطفـــئ. لهـــب الشمعة ارتعش ثم خبا. قبلّها على كل حال، آملاً...، غير أن شفتيها كانتا غير مستجيبتين.

حين انسحب ونظر إلى وجهها ثانيةً، وجد الخـــواء العميق العميق قد عاد.

---

[1] Their David تقصد ابنهما ديفيد. (ت)

- " جين؟"

لا شيء[1]. احتضنها، أرجحها بلطفٍ.

- " جيني البائسة! قال. " جيني حبيبتي التعسة البائسة."

***

رنَّ جرس الباب في الساعة الخامسة تماما. حين فتح "توم" الباب كان "ديفيد" واقفا عند العتبة. مسح بعينيه القاعة بحثًا عن أغراض أمه، وبدا منزعجًا قليلاً حين لم يجد أيًّا منها.

[1] لم ترد ولم تبد عليها أية ردة فعل. (ت)

- " أبي؟ ماذا هناك؟ أليستْ مستعدّة؟

نظر "توم" مليًّا إلى ولده. كانت بــه ملامــح مــن "جيني"، منعكسةً في جبهته العالية الناصعة، وفي زرقــة عينية الوفيرة. هزَّ "توم" رأسَه.

- " لا، ليست مستعدّةً.، ولا أحد من كلينا مستعدٌ إذا أردت الحقيقة. لقد أعدنا التفكيــر قلــيلا، والدتك وأنا، ربما كان تحولاًّ في القلب، يمكنك قول هذا."
- " لكن يا أبي ...."
- " توم؟ توم هل هذا هو (ديفيدنا) ؟

جال صوت "جيني" خلال غرفة المعيشة، فتوقــف ولدها في منتصف الجملة. حملّق في والده، فابتسم "تــوم" في وجهه.

- " هل أخبرك بأمر يا فتى،" قال له فيما يأخــذه من ذراعه،" لماذا لا تأتي للــداخل ؟ سأضــعُ غلاية الشاي على النار. أمك تبتهجُ برؤيتــك دومًا ، سواء أظهرتْ هذا أم لم تظهره. وبعــد ذلك سنمضي ثلاثتُنا في الدردشة، ما رأيك؟"

***

قتـلُ الأرانـب

لم أتطلّعْ يومًا إلى قتل الأرنب.

لا تقلّلوا من شأن الحدث – فقد كنتُ أرتعد من الفكـرة. كنت أفزع منه مثلما يفزعُ القتلةُ من أنشوطة الجـلاد، أو كما يفزع غواصو البحار العميقة من التواءات العضلات، أو مثلما يفزع المدرسون التعساء مـن صـباحات يـوم الاثنين.

– " لست مضطرًا على فعل ذلك ! " هكذا قالت زوجتي "ماري"، التي كان القلقُ يزيد وجهها رهافةً، وكـان هـذا لطيفا منها، غير أن كلينا كان يعلم أن تلك لم تكن الحقيقة.

الحقيقة كانت وجوب أن أفعل ذلك. إذا لم أفعل، إذا ما الذي كنا نمثله هنا تحديدًا ؟ إعادة عرض لكوميـــديا " الحياة الطيبة "[1] ؟

إذا لم أستطع أن أجبر نفسي على قتل أرنبٍ واحـــدٍ أعزل، فإن كل كلامنا حول أســلوب الاكتفـــاء الـــذاتي، ومحاولة الخروج من جنس الفئران، وإقامة حيـــاة أكثـــر صحيّة، لن يغدو أكثر من كلام. مجرد كـــلام. وبوســـعي الآن أن أسمع والدة "ماري"، بوســـعي أن أرى حاجبيهـــا المقوسيْن، وابتسامتها التي تقول: ألم أقل لك ؟، وتهكمهـــا الواثق :" أوه نعم، أنتَ دائما بارع في الكلام، أليس كذلك يا جون...!".

حسناً، لم تكن هي من يستحق هذه الترضية، لكـــن على أية حال، ماري وأنا كنا في طريق أكثر انحدارا من أن نقيم ظهورنا، تجاوزنا منذ زمن نقطة اللا عودة. تركنا

---

[1] - ***The Good Life*** فيلم كوميدي بريطاني يتناول حياة أسرة من الطبقة المتوسطة. (ت)

وظيفتينا، تركنا بيتنا، ثم انتقلنا نهائيا إلى المنطقة الريفيــة من البلد – والآن، انظروا إلينا.

أعجوبة العجائب، أننا كنا نفعل الشيء ذاتــه الــذي ظللنا نحلم به طيلة العامين الماضيين. وها نحن أخيــرًا، برغم كل العقبات، ندير أرضا صغيرة تخصنا.

الأسابيع القليلة الأولى من محاولة تحويل المكان إلى شكل مقبول كانت شاقة، لكن مُرضية تماما. لا شك، فقــد كان الكوخ الريفيّ خشن الحواف، وينقصه بعض الأعمال الإنشائية، لكن المحيط العام كان رائعًــا. لــدينا ثمانيــة هكتارات من تربة عفيّة خصبة، محاصيل تُزرع وتنمــو، دجاجات تقيقُ، بطّات توقوق، إوزات تزمِّرُ، بضع خراف تمأمئ، وبطبيعة الحال كان لدينا أرانب، أرانب مشغولة بما تحب أن تفعله الأرانب عادة.

هل كان من الممكن أن أغامر بكل هذا، لمجرد أنني لا أستطيع أن أواجه ببسالة مذبحةً صغيرة – الشيء الذي هو ركن ركين من حياتنا الراهنة ؟

كلا. إنه الوقت الحاسم. الوقت الحاسم بالنسبة لـــي، الوقت الحاسم بالنسبة للأرنبة.

اسمُها "تاج"، إحدى ثلاثة أرانب نيوزيلندية بيضاء. الذكر الضخم أطلقنا عليه اسم "بوبتيل"، أما الأنثى الأخرى فتُدعى "راج". كانت "راج" دائما حُبلى بحَملٍ ثقيل، ولـــو اتبعت "تاج" النهج نفسه لأصبح ثالوثنا الصغير في طريقه الصحيح نحو تزويدنا بحوالي 200 رطل من اللحم كـــل عام. هكذا تقول الكتب على كل حال.

لكن كان ثمة مشكلة. فبرغم كل جهـــود "بوبتيـــل" (ولأوفي الولد حقه لابد أن أقول إنه بذل قصارى جهـــده بالفعل)، إلا أن "تاج" رفضت أن تستجيب. أســـبوع بعـــد

أسبوع بعد أسبوع، و"بوبتيل" يـؤدي واجبَـه الرجـوليّ بحماسٍ مذهل، غير أن "تاج" ظلّت على عقمها العنيد.

إذا كانت الأنثى غير منتجة، يقول خبراء الاكتفـاء الذاتي، فإن مكانها الوحيد إناء الطهي ! وكانت "تاج"، تلك الأرنبة اللطيفة، من دون شك غير منتجة. حسنًا، لا مكان للعائشين على الصدقات في مزرعتي الصغيرة. "تاج" لابد أن ترحل.

- "إذا لم تصبح حُبلى على نهاية الأسبوع،" أخبرتُ ماري، " إذن سيكون. سـنجلب أنثـى أخـرى، وسيكون عليّ أن .... ، أنتِ تعرفين."

وجاءت نهاية الأسبوع، وكل ما يمكننـي قولـه إن "تاج" ظلت عاقرًا كما هي دائما.

- " غدًا،" هكذا أعلنت بينما أتجه إلـى زر الكهربـاء لأطفئ المصباح جوار السرير. " سوف أفعلها غدا."

–

في الظلام كنت أسمع تنفس "ماري".

- " هل أنت واثق؟"
- " نعم، لقد حان الوقت."

لم أستطع النوم تلك الليلة. كنت أسقط في النـوم للحظات قليلة، فإذا بالذي سوف أفعله في الصباح يقفز في أحلامي على هيئة شبح أرنب مخبول يتلوى، طولـه 15 قدم، يترنح في خطوته على طريقة مشاهد أفلام الرعب. رقدت عيناي شاخصتان، أحملق في الظلام، أفكر، أتذكّر.

أعود بالزمن إلى الوراء، حين كان قرار الانتقـال إلى الريف مازال في طور المناقـشة، كـان أصـدقاؤنا يستمتعون باسـتجوابنا حـول طبيعـة حياتنـا الجديـدة والتجليات التي سوف نتورط فيها بناءً على ذلك. اهتمـوا على نحو خاص بالجزء الخاص بعملية الذبح. بدا أن أحدا لا يعاني مشكلة كبيرة في التعامل مع الدجاج، أو الإوز أو

الخراف، غير أن الكثير منهم روّعتهم فكـــرة أن نربّـــي، نقتل ثم نأكل الأرانب.

صديقانا الحميمان، "ستيف و بولين"، كانـــا يربيـــان زوجًا من الأرانب المنزلية الأليفة ذات الـــشعر الغزيـــر والحيوية التي تنطق بالجمال واللطف، اقتنـــى الـــصديقان هذين الأرنبين من أجل تسليّة أطفالهما- ولـــذا لـــم يكـــن مدهشا أن يكون انزعاجهما شديد الخصوصية.

- " لن تقدر مطلقا أن تفعل ذلـــك،" هكـــذا قـــال "ستيف" في إحدى ليالي لقائنا في الحانة. " ليس حين تنظر إلى الأسفل فتجد هاتين العينين البنيّتيْن الواسعتيْن تنظران إليك، وذاك الأنف الصغير المرتجف...."

- " الأرانب النيوزلنديـــة البيـــضاء لهـــا عيـــون حمراء." قلت له.

هزت "بولين رأسها. " ستيف معه حق، مازلت أذكر الحال التي انتابتك حين تعثرت وانقلبت فوق قطتنا."

أجفلتُ. دهسي لقطتهما كان أسوأ ما مرَّ بي. أدركت منذ عهد بعيد أن "بولين" لن تتركني أنسى ذلـــك الحـــدث أبدًا.

– " الأمر مختلف،" أجبتُها بينما أختبئ خلف كأس البيرة، "الأمر مختلف تماما."

– " ياللكائنات الصغيرة التعسة! " قالت بابتـــسامة نصفُها غضبٌ ونصفُها استهزاء. " على الأقل لا تتوقـــع مني أن أكون لطيفة معك بعد أن تكون قد اغتلت ملايـــين من الأرانب الرضيعة البريئة، هذا كل ما في الأمر. أنـــا أتكلم عن الدماء التي تلوّث يديك..."

كانا على حق بلا ريب. أدركت دائما أنني ســـأواجه معضلةً مع عملية القتل تلك، لكني اســـتطعت أن أطمـــئن نفسي مادام الأمر مازال مرهونا بالمستقبل البعيد.

بوسعك أن تصنع حالة ذهنية تمكنّك من الكلام عن الذبح، السلخ، التقطيع الخ...، مستخدما تلك المصطلحات

العملية الهادئة ذاتها التي تتداولها كتب الزراعة. بوسعك أيضا أن تتعلم كيف تنتزع نفسك من المظاهر الريفية غير المبهجة عن طريق أن تتخيل كم هو رائع أن تعيش في مكان ريفي بسيط مع " فليسيتي كاندال".[1]

غير إني عدلت تماما عن فكرة النوم، ومع بداية تسلل الضوء الخافت عبر الستائر، كان عليّ قبول حقيقة أني لن أستطيع مجددا أن أستخلص نفسي أو أصرف تفكيري عن الأمر. الوقت الحاسم. أما فيما يخص " فليسيتي كاندال" – فلم تكن في أي مكان حتى تُرى.

حول الخامسة صباحا، تسللتُ من السرير، ارتديت ملابسي وتسللتُ ببطء إلى الطابق الأسفل، تاركا "ماري" تتنازعها أحلامها الخاصة . وددتُ أن أنهي الأمر بأسرع ما يمكن، ومن الأفضل أن يتم بينما هي مازالت تغط في النوم.

---

[1] - Felicity Kendall - ممثلة إغراء أمريكية . (ت)

في الخارج، كانت شبورة الصباح الباكر تتدفق وتغطي الأرض. بدا ذلك مناسبا على نحو ما.

كان كل من " راج، وتاج، وبوبتيل" في أقفاصهم المنفصلة في الحظيرة الصغيرة خلف الكوخ. كانت أنوفهم تختلج تجاهي كلما اقتربت أكثر، بينما أخذ"بوبتيل" يضرب الأرض بأقدامه.

إذا قُدِّرَ لك أن تقتل أرنبا، فإليك ما يجب أن تفعله:
تأخذ ساقيه الخلفيتيْن بيدك اليسرى، تقبض على رأسه بيمناك، ثم تلوي الرأس إلى الوراء. في ذات الوقت تضغط يدك إلى الأسفل كي تشدَّ العنق. إذا أديت الخطوات على نحوٍ صحيح، ستتكسر عظمة العنق ويحدث الموت تقريبا في لحظة.

قرأت التعليمات عشرات المرات. أحفظها عن ظهر قلب. بل إني مارست كل تلك الخطوات من قبل على منشفة الصحون باعتبارها أرنبًا بديلا!

غير إني بمجرد أن أخرجت "تاج" من قفصها،..... ارتعشت يداي.

حملتها إلى الخارج حتى لا يتمكن "راج و بوبتيـــل" من رؤية الذي بصدد أن يحدث. داعبتها، أخبرتهـــا أنـــي آسف، ثم، بأسرع وأدق ما يمكن،
قتلتها.

***

كان الأمر رهيبا، سوف لا أنساه مطلقا. ولن أنـــسى أبدًا كم كان شاقا أن أتراجع.

غير إني أنجزت الأمر على نحو صحيح. نعم على الأقل أنجزته على نحو صحيح. إذا كانت قد تألمت، فلـــم يكن ذلك إلا لثوان قليلة.

بعدما قتلتها، كان لزاما عليّ أن أنجز عمليتي السلخ والتقطيع أيضًا. أعرف النظرية – عليك أن تحزم ساقي الأرنبة الخلفيتيْن فوق مفصل القدم مباشرة ثم تعلقها على خطافيْن. بعدها تشقُّ قَطعًا صغيرا أعلى مفصل كلِّ كاحل من ساقيها الخلفيتين، ثم تمد القطع حتى فتحة الإست. بعدئذ تنزع طبقة الفراء عن الجلد عند ساقيها ثم تقشرُّها عن سائر الجسد.

فعلت كل ذلك، وفعلته على نحو جيد. لقد هيمنت على الموقف الأساسي ، جابهت الأمر الذي طالما أفزعني ، تصرفتُ كرجلٍ. وكنت بالفعل راضيًا على نفسي.

حين فتحتها لأفرّغ أحشاءها، تبخرت كل مشاعر الغبطة.

***

هبطت "ماري إلى الطابق الأسفل ووجدتني جالسا في المطبخ.

- قالت " ماذا هناك؟"

أخبرتها.

تعرفت على الكبد، القلب، الكليتيْن، لكن ثمة أشياء أخرى في الداخل لم أتبينها مطلقا. أشياء لم تكن في الكتاب.

عشرة أشياء.

- " كان يجب أن أنتظر يا ماري،

"تاج" كانت ملأى بالصغار."

برغم كل هذا كانت "تاج" حُبلى.

***

المشي بالمقلوب*

في أحلامي، أحلامــي الطيّبــة، "مــاري آيــريس ماكورماك" – التي أسميها "ميم" اختصارا – دائمــا مــا أراها تؤدي حركة الشقلبة، أي تقف على يديها، ركبتاهــا مثنيتان، وقدماها مزروعتان بثبات صوب حائط الطــوب الأحمر في فناء الملعب. تنورة زيّها المدرسي تتدلى مثل ناقوسٍ ناعم أخضر اللون حول لسان النــاقوس نــصف المختفي: رأسها، وحين تــدير رأســها لتــواجهني، أرى عينين غريبتين ذكيتين مقلوبتين ترمقــانني مــن أســفل الأهداب المقلوبة. تنظر بعيدا، وبحركة خاطفة من شعرها الأشقر تكنس غبار الأسفلت فيتحرك في دوامات.

* - فازت القصة في مسابقة "وورد سميتن" *Word Smitten* - 2003

حالِمًا، نصفَ واعٍ بالحقيقة، أتساءل كم من الوقت مضى منذ تلك الظهيرة الزرقاء الصفراء الدافئة، داخل خيمة شقيقتها في تلك البلدة الصغيرة. تسعة وثلاثون عاما ؟أربعون؟ هل يمكن أن يكون ذلك حقيقيا؟ هل مضى بالفعل كلُّ ذلك الزمن الطويل منذ أن تركتني وانتقلتْ إلى المدينة، إلى حيث الأضواء البرّاقة، لندن؟

من رأس التنورة–الناقوس ، ترتفعُ في الهواء ساقان مضبوطتان ، زوجان متماثلان من الدعامات الطائرة تقبلاّن الحائط من أجل أن تبقيه مكانه. تنفردان فجأة، تنفصلان بكل مهارة، فتصبحان حرف V يتجول بينما تتقدم "ميم" نحوي ببطء، متزنة، مستقرة، يداها تشكلان زاوية قائمة مضبوطة مع معصميْن قويين مرنيْن. شيء مدهش. V يعني علامة النصر.

أسمع جلجلةَ عاليةَ النبرة لضحكةٍ صادرة من باطن الناقوس، وفي ظلمة البقعة المحرّمة – ذاك المكان حيث

ليس لعينيّ عملٌ شرعيٌّ فيه – أبــصرُ قطعــة ملابــسها الداخلية داكنة الزرقة.

ثلاث مراتٍ في الأسبوع الماضي أصحو عند هــذه النقطة من الحُلم، وأنظر صوب بحيرة النور حيث تجلس ممرضات الليل. أعرف إحداهن جيدًا– الممرضة "ماري أوكانُر"، ذات الشعر الأحمر واللكنة الأيرلندية المحببــة. كان أبوها هو ساعي البريد الخاص بي، يتسلّم رســائلي، يجمع ردودي، يجلب لي الصحيفة الجافة والإحباطــات. أخبار المدينة الضخمة – المدينة التي هي أضــخم ممــا يحتمل ولد مثلي من بلدة "فريستون" الصغيرة.

آه يا "ميم".

حين تتحرك الممرضة "ماري أوكانُر" علــى هــذا النحو الواثق، وتضحك بتلك الطريقة، تذكرني بكِ.

أحب أن أتخيّلها وهي تقف، تتثاءب، تنتزع نفــسها من موقعها ومن بحيرة النور الساطع الــصغيرة هنــاك.

أحب أن أتصورها وهي تنقلب، تمشي على يديها صامتةً خلال ردهة غرف النوم، زيها الأبيض الهش أضيق من أن يصنع شكل الناقوس، غير أن قبعتها الجادّة ستسقط، وسيتماوج شعرها الأحمر على الأرض حرا طليقا.

أراها تقف عند سريري، تبتسم ابتسامة واسعة، تلف دورةً بطيئة، ثم تعود أدراجها إلى طاولتها. نعم. حتى من دون ناقوس، حتى من غير أن ألمح قطعة ملابسها الزرقاء الداكنة، سوف يظلُّ ذلك شيئا جديرا بالاستيقاظ من أجله.

أغمض عينيّ وأفكر فيكِ يا "ميم" – مازلتِ تمارسين الشقلبة في أحلامي، مازلت ترينني قطعتك الداخلية، مازلت تسببين لي المتاعب ... بعد كلِّ تلك السنوات.

***

النبتة الصغيرة

إنه الصباحُ الباكر، صباحُ عيــد مــيلاد "ســايمون" الحادي عشر، وها هو يحلم بـــ" كـــانوني" ثانيـــةً، يحلـــم بالعالم الغريب الذي يشاركها فيه أحيانا. ولو أن هذا المرة مختلفة. فهو أبدًا لم يرها بمثل هذا الوضوح من قبل، لـــم يكن يقظًا وواعيًا بالفروق بين عالمها وعالمه قبـــل الآن. تغمره مشاهد وأصوات وروائح إفريقيا .

كانت " كانوني" تمتطي فرع شجرةٍ تحلّق على بعــد متريْن فوق فراش "سايمون"، تتدلى ساقاها الطويلتـــان، و قدماها الحافيتان تتأرجحان بالقرب من وجهه. ثمة قطـــعٌ في الجانب الأسفل من أحد أصابع قدميها، وكان بوســـعه أن يرى كعبيْ قـــدميها العـــاريتيْن بـــشقوقهما الـــسميكة وبشرتهما الغليظة.

خارج شرفة حجرة نومه، تزأر حركة المرور في لندن تحت الغيوم الرماديّة. ثمة كلبٌ ينبح. ومن بعيد يصرخ جهاز إنذار إحدى السيارات.

- " مرحبًا أيتها النبتة الصغيرة، عيد ميلاد سعيد."، قالت "كانوني" .

يبصر "سايمون" شفتيها تتحركان، يسمع كلامها داخل رأسه – لكنه يعلم أن صوتها لم يدخله بالطريقة المألوفة. "كانوني" تتكلم لغتها الخاصة، فمُها يتشكّل على نحوٍ غريب، يأخذ أشكالا متحركة، غير أن الكلمات التي يسمعها كانت دائما كلمات إنجليزية.

- "شكرا لكِ يا "كانوني"، قال لها.

يتكلّم بهدوء لأن نومَ أبويه خفيف وهو لا يريد أن يسمعاه يكلّم نفسه ثانيةً. ليس بعد الذي أجبراه على فعله في المرّة الأخيرة.

ابتسمت " كانوني" ابتسامة عريضة، فظهرت أسنانها مثل صدمة بيضاء داخل الإهليليجِ المظلم من وجهها.

- "تعال." قالت، بينما تهبط للأسفل.

يدفع لحافه بعيدا، يأخذ يدها، وبقفزة واحدة يسيرة يلحق بها فوق غصنها الإفريقيّ، يشعر بقشرة الشجرة خشنةً تحت فخذيه النحيلين. ينظر إلى الأسفل حيث الطريق الجافة القاحلة التي تصل بين الشجرة وبين القرية، ثم يبصر الشمس، كرة برتقالية ضخمة، تصعد فوق مجموعة من الأكواخ الصغيرة المتربة. السماء في الأعلى مثل صحنٍ مقلوب من الأزرق والذهبيّ.

إذا ما أدار رأسه قليلا، سيظل بوسعه أن يرى غرفة نومه، الملصقات على حوائطها، تليفزيونه، حاسوبه.
توقّف إنذار السيارة، في حين ظلَّ الكلب ينبح.

- "هذا عجيب !" ، قال هذا بينما يشعر باتزانه واستقراره فوق نقطة التقاء عالميْن.
- " نحن فوق صهوة حصان، منطلقين صوب "مومباسا"، حصانٌ خشبيّ على شكل شجرة"، تقول كوناني.

تضحك، و معًا يشاهدان فجر يومٍ إفريقيّ جديد.
فجأة ينتبّه "سايمون" إلى بيجامته التي على شكل "الرجل العنكبوت". كيف يبدو شكله الآن، وهو يمتطي هذه الشجرة ؟ يبتسم ابتسامة عريضة.

- "انحني قليلا إلى الخلف، أيتها النبتة الصغيرة،" تقول كانوني.

يفعل ذلك، فتطوّقه بذراعيها. يشعر بدفء جسدها، يستنشق الرائحة الطيبة لبشرتها، ويشعر بالأمان. يشعر بالانتماء.

- " بالتأكيد أنت تنتمي إليّ،" تقول "كـــانوني" فيمـــا تقرأ أفكاره. " كلانا منتميان سويًّا، أنـــتَ وأنـــا. بذرتي تنمو داخلك، بذرتك تنمو داخلي."

يضع "سايمون" يده فـــي يـــدها. تـــتلمسُ الكـــدمات الزرقاء، الخطوط الحمراء الغاضبة على معـــصمه. تمسح عليها بإصبعها.

- " والدك؟ " تهمس فيما تقبّل أذنه.

"سايمون" يومئ برأسه موافقا.

تتنهد "كانوني" . يستطيع أن يخمن أنها تنظر ألان في أرجاء غرفة نومه.

- " أنتَ تملك الكثير جدًّا،" تقول كانوني. " ورغـــم ذلك أنتَ تملك القليل جدا."

ينظر "سايمون" إلى القرية المغبـرّة، يـرى والـد "كانوني" يبرزُ فجأةً من أحد الأكواخ. يقف في مدخل الباب، ملوّحًا في الضوء الذهبيّ.

- " أنتِ تملكين القليل جدا،" يقول سايمون،" ومـع هذا أنتِ تملكين الكثير جدا."

تعانقه "كانوني".

- "اليوم عيد ميلادك أيتها النبتة الصغيرة. أنت كبير بما يكفي. لدي الكثير مما يجب أن أخبرك به."

لفترة من الوقت جلسا سويا في الشمس المشرقة، يتكلمان عن نفسيهما، وعن النبتات الصغيرة الأخرى. يتكلمان عن كيف سيجعلان كل شـيء فـي العـالم يتغير.

***

الأشياءُ التي تركتِها وراءَكِ

طوال الأسبوع الماضي، لم يكن بوسعي النظرُ إلى سلّة الغسيل بالحمام. مازالت ملأى بأشيائكِ. الحقيقةُ أنني أصبحتُ خائفًا منها- خائفًا مما قد أجده داخلها. قطع الملابس الداخلية، مشدّات الصدر، بنطلون الركض الخاص بكِ. جواربك. أنا واثق تقريبًا أن زوج الجوارب الذي أهديته لك في عيد ميلادك الأخير كان هناك- الجورب الذي يحمل تطريزًا عند الكاحل يمثل رمز الأنوثة. لو رأيت الجورب ثانية، لا أعرف ماذا سيفعل بي- لذلك، كلما أردت استخدام التواليت، أدرتُ وجهي للجدار، ورحتُ أحملق في تشكيلات ورق الحائط. أتظاهر وكأنني في محيط مختلف حيث الحمامات خاوية، وسلال الغسيل ليست موجودة.

لكنها هناك، أعلمُ أن سلالَ الغسيل موجــودة. فــي المحيط الذي تركتِني فيه، سلال الغسيل موجودة في كــل مكان. كلما استعملتُ التواليت، أعلم أنني على بُعد قَــدَمٍ من أشيائنا، من الأشياء الخبيئة بالداخل. الأشــياء التــي تهتفُ بي. الأشياء التي خلّفتِها وراءكِ.

من أجل ذلك، سوف أتعامل معهــا اليــوم. اليــوم سأُفرغُ السلّة.

وها هي الطريقة التي سيتم بها الأمر.

سأجد زوجيْن من قطع الملابــس الداخليــة التــي تخصُّك، لونها أصفر باهت ولها أحزمة حول الخــصر. بها شعرتان مجعدتان من شعرك.

سأضعها في راحة يدي لبرهة، ثم آتي بقــصاصة ورق. أفردُ الشعرتين على الورقة وأحاول أن أقيــسهما. ذلك أفضل ما يمكن فعله، أوقن أن فعلَ ذلك سيجعلني في حال أفضل. مثل ذاك اليوم الذي أعــاد فيــه البــوليس

أغراضك الشخصية، قلتُ شكرًا لكم، كم أنـــتم طيبـــون، وبعدما مضى رجال البوليس، تناولتُ ميـــزانَ المطـــبخ وشريط القياس ورحتُ أزن أغراضك وأقيسها.

هل تذكرين مفاتيحك؟ وزنهم 78 جرامـــا، وكـــان الأكبر بين المجموعة(مفتاح سيارتك) بطول 73 مليمترا.

شعرتاك ستكونان وغدتيْن إلى حدٍ ما. تتـــصرفان على نحوٍ سيء. كلما شددتهما تلتفان حول إصبعي مـــن جديد . لا جدوى، لن يفعلا ما أريد.

تبدوان مألوفتين؟

سوف أنجح في النهاية. إحدى الـــشعرتيْن ســـتكون بطول 24 مليمترا، والأخرى 27،5 مليمتـــرا. ســـأقيس بعضًا من شعيراتي لأقارن. ستبدو أطول بكثير، وأتساءل ما إذا كان هذا بسبب اخـــتلاف الـــصفات بـــين الـــذكر

والأنثى، أم أن الشعيرتيْن اللتيْن وجـــدتهما تــصادَف أن كانتا قصيرتين.

سألصق شعرتيك علـــى الورقـــة، واحـــدةً جـــوار الأخرى، أغطيهما بشرائح السيلوتيب، وأدوّن تفاصيلهما. ثم أضع الورقة في مظروف أكتب عليـــه بخـــطٍ أنيـــق "شعيرات كاثي(2)" ، ثم أضعه في صندوق، في محـــاذاة بقية الأشياء التي نجحتُ في إنقاذها من الغرق.

أخيرًا، في نهاية ساعة الليل الأخيرة، سوف يغـــدو المنزل كبيرًا جدًا، ولن يكون بوسعي النـــوم، لا شـــيءَ بالتلفزيون سوى بعض برامج البورنو الخفيفة وعروض المسابقات، لذلك سوف أُخرج الـــصندوقَ مـــن مخبئـــه، وأتعامل معه بتريّث، أستنشقُ، أمتص أريجَـــكِ الخـــاص بشفتيّ وأنفي ولساني وأصابعي.

الأبواب الخارجية، هكذا أفكر بها. الأشـــياء التـــي تركتِ وراءكِ هي البوابات الخارجية، مداخل الذكريات،

ممرات الوميض والتغيّرات. أتجاوز هذه، وتلك، لأجـد نفسي في بقعة مختلفة منك. بقعة مختلفة منّا.

لديّ خاتمُ الزفاف. حين ألتقطه، لا أتـذكّر مكتب "باكستون" لتوثيق الزواج، ولا كعكة الزفاف ذات الخمسة عشر إسترلينيًّا، التي كانت شديدة الصلابة حتى إننا لـم نستطع تقطيعها، ولا أتذكّر حقيقةَ أنك لم تستطيعي قـول كلمة " عائقٌ شرعيّ". تلك الأشياء تـأتي لاحقًـا. الـذي أتذكّره أولا هو اللحظة التي قذفتِ فيها بالخـاتم، الخـاتم الذي اشتريته من أجلك، ومرّرتُه حول إصبعك. طوحـتِ به في وجهي. وأتذكّر كيف ضاع منّا وانتهى به الحـال في وعاء الكلب– وبعدها بلحظات، داخل الكلـب ذاتـه. وأتذكّر الراحة على وجهك حين خرج أخيرًا من الناحيـة الأخرى.

أتذكّر كيف جعلتِ الماء الصافي ينسابُ فوقه فـي حوض المطبخ لتنظفيه من غائط الكلب، تضحكين قائلة:

" يجب أن يصبحَ هذا الأمرُ رمزًا."

وكنتِ محقّةً، فقد كان.

لكنني لا أذكر أي رمزٍ تقصدين يا كاثي. لا أذكـرُ ماذا يعني ذلك. ربما يعني لا شيء، ربما كما قلتِ مرةً، الأمرُ كله نكتةٌ كونيّة.

رغم ذلك، سوف أستمرُ في تجميع الأشياء.

الأسبوع الماضي وجدت قلامةً من ظفر إصبع قدم كانت مختفية تحت حوض الحمّام. بها أثر من طلاء أظافر أحمر، لهذا عرفت أنها لك. وكذلك – أظن في اليوم ذاته – صادفتُ قائمةَ مشترياتٍ مجعدةً في جيبِ معطفك، وكذا إحدى شخبطاتك: أرنبُ رسومٍ متحرّكة مرسوم بعشوائية على ورقة صفراء– تضعينها داخل الكتاب كي تحددي أين وقفتِ. " هاري بوتر" و حجر الفلاسفة. الكتاب الأخير الذي كنتِ تقرئينه، لكن الأرنبَ

أخبرني انكِ لم تنتهي منه. وصلتِ إلــى صــفحة 29 – تمامًا مثل عمرك. هل يعني ذلك شيئا؟

لا أظن يا كاثي. لكنني ســوف أحــتفظ بالكتــاب والعلامة وقلامة الظفر وبالشعيرات وبمفتــاح ســيارتك وخاتم الزفاف وكل القطع الحزينة الآسفة التــي تركتِهــا خلفكِ. سوف أحفظها جميعا في صندوقي.

وسوف أعملُ قدر إمكاني على الاحتفاظ بالــشيء الأشد حزناً والأشد أسفًا منها جميعا. سوف أحتفظُ بنفسي.

***

البومـــــة

كان الكوخُ بديعًا – كلُّ النوافذ من ألـــواح خـــشب الصنوبر بارتفاع السقف، على مدار ثلاثـــة أوجـــه مـــن أوجهه الأربعة. أحبَّ "سايمون " شكلَ الكوخ بمجـــرد أن رأى صورته في كتيّب الإجازات. لكنـــه أحـــب الكـــوخ الحقيقي أكثر.

- " ما رأيكِ؟" سأل "ماري" بينما تنـــدفع ســـيارتهما صوب المدخل عبر الطريق المغطـــى بالحـــصى الصغير.

التفتت إليه وتنهّدت قائلةً:

- " هلا أعطيتني فرصة ؟"
- " معذرةً ." قال سايمون

أوقفَ السيارة وهبطت ماري. مشتْ صوب السياج المطليّ الذي يفصل واجهة الكوخ عن الحقل المواجه. سياجٌ أبيض اللون من الأوتاد المتوازية، يشبه ذلك الذي يعرف أنها حلمت به طويلا حين كانت فتاة صغيرة. تحقّق حُلمها أخيرًا عبر قرار سايمون الجسور. كان هذا الحلم هو أحد أسباب اختياره هذا الكوخ تحديدًا وهذا الموقع تحديدًا.

راح يتأملّها لحظةً، ويفكر " زوجتي، ماري التي تخصني".

شاهدها وهي تثبت أطراف أناملها – واحدًا إثر واحد – فوق حافة السياج، وتذكر كيف اعتادت أن تفعل الشيءَ نفسه فوق ذراعه العارية. قبل زمنٍ من الآن. زمن طويل.

نزل من السيارة ولحق بها. كان المكان راحةً للعين ولساقيه المنهكتيْن. بالطبع كأس من شرابٍ قويّ

سيكون فيه راحة أكبر، لكنه قد وعـدها، بوسـعه أن ينتظر. وقف جوار سياج ماري، وراح يـدلّك عُقَـد التوتر المتجمعة في عموده الفقري، وقف يعبُّ مـن هواء الريف المـضفور بـروائح الأرض والخـشب الدافئ والأعشاب النامية.

أكوام الحشائش المُزالة مـن المـرج العـشبي الخشن أمامهما كانت منحدرةً بعيدة عن كوخهمـا – الذي سيظل كوخهما على مدى الأسبوعين القـادمين، أو طالما استطاعا أن يبقيا في رفقة بعضهما الـبعض – ومكومّة في اتجاه شلال المياه الذي يلمـع أسـفل الوادي المنبسط.

وخلف الماء، ربما على بُعد خمـسين متـرًا، كانت الغابة. جذوع الأشجار وأوراقها المتحورّة بدت رائعة الجمال في ضوء الشمس المائلة.

نظرت ماري نحو المشهد غيـر إنهـا ظلّـت صامتة، وفكّر سايمون كيف يمكـن أن تـؤدي تلـك

الرحلة إلى استغراق كلٍّ منهما أكثر داخل عالمه الخاص المنفصل، رأى نفسه يمشي وحيدًا خلال الغابة التي تناديه، بينما الغبار وجذور النبات المتكسرّة تحت قديمه. لم يرق له ذلك.

- "إذن ؟" قال متسائلا.

ثمة لمحة من الغضب شابت صوته. سرعان ما ندم عليها.

حولّت ماري عينيها إليه، تحت ضوء الشمس الآخذ في الزوال، لكنها لم ترفع يدها لتحجب الضوء عن عينيها. أطراف أصابعها كانت مجمدّة فوق قضبان السياج.

- " إنه جيّد" أجابت.
- " جيّد وحسب ؟"

أدارت رأسَها ونظرت مجددا نحو الحقل. حاول أن يرى المياه والغابة خلال عينيها.

- " كلا، " قالت، " ليس جيدًّا وحسب. أفضل من جيّد. ربما مثاليّ."

أومأ برأسه.

- " حسناً، كل شيء على ما يرام إذن." قال.

بعد برهة عادا إلى السيارة وبدآ في تفريغ أغراضهما.

***

كان بالكوخ سريران متشابهان. سألها إذا كانت ترغب في ضمّهما معا. نظرت إليه، لكنه لم يستطع قراءة التعبير فوق وجهها.

- " هل يزعجك إذا لم نفعل؟ " قالت. " ليس الليلة على أية حال. ربما فيما بعد."

***

جلس على أحد المقاعد ذات المساند جوار النافذة داخل الكوخ، وراح يتأمل ماري فيما تتحــرك فــي الخارج. بعد برهةٍ عادت أدراجها إلى مكانها جــوار السياج وزرعت نفسها هناك، ناظرةً إلى القمر. كانت ليلة دافئة. النشرة الجوية وعدت بهذا. كل شيء على ما يرام حتى الآن.

الكلمات كانت قليلة، لكنهما أفرغا أمتعتهمــا، أعــدا وجبةً سويًّا، جلسا، تناولاها معا. أطلق نكتةً. ابتسمت ماري. لم تذكر شيئا بشأن إسرافه في الخمر. وهو لم يثر مشكلة بشأن السريرين.

- " هذا مكان جميل،" قال هذا للغرفة الخاوية.

رفع كأسه، وشاطر الكوخ نخبه ، شرب نخبَ الغابة، شلال الماء، شرب نخب قراره. ثم نظر عبر الزجاج، ورأى ماري في ضوء القمر وقد تحوّلت إلى تمثـــال من الذهب.

كان قد حجز للإجازة من غير أن يخبرها – باغتها بالقرار أمس، وضعها أمام الأمر الواقع. اشتعلت غضبًا، وكادت ترفض المجيء. مرّ الوقت فيما يقود السيارة إلى هنا غير مريحٍ على الإطلاق. لكنهما هنا الآن، كان سعيدا ويأمل أن تكون ماري سعيدة أيضًا.

- " مكان جميل،" قالها ثانيةً. رجع الصوتُ إليـــه، دافئًا خشبيًّا عبر ألواح الكوخ.

التفتت ماري. توقفتْ. ثم التفتت بعيدا من جديد.

في القديم كانت تستطيبُ صوتَه. كم قالت: " حـــسنًا، رغم إنك تشبه الكلب، لكن على الأقل لك صوت لطيف."

كانت تضحك ضحكة واسعة وتلوي شفتيها حين يعرض عليها أن يقرأ لها في السرير، كان يحب أن يراها تسقط في النوم على صوته فيما يقرأ. مازال بوسعه أن يشعر بأناملها ترتاح فوق فخذه، بوسعه أن يتذكر شعوره بالأمان وهي تنجرف بعيدا في قصص هـ إي بيتس أو توماس هاردي. حتى بعد أن تنام كان يواصل الحكي، كان يحب أن يغرقها في صوته ويرسل بها إلى الأحلام.

عند نقطة ما توقفا عن فعل ذلك. لا يتذكر لماذا، أو متى.

رشف من كأسه وفكر في اليوم الذي حملها فيه إلى أعلى السلم في بيتهما الأول – شقة ضيقة أعلى دكان بيع الدهانات. تألم ظهره يومها، واضطر إلى النوم على الأرض ثلاث ليال. كانت تطعمه حساءً، ثم جاءت البيت بكلبٍ صغير. كانوا غالبا، في تلك السنوات الأولى، يجلسون ثلاثتهم في الشرفة يشاهدون العابرين، المرور

هنا وهناك، السيارات التي تزمجر في اتجاه الشارع الواسع.

- " أنتَ تحب أن تراقب الحياة، أليس كذلك؟ " قالت ذلك مرةً.

فحص انعكاسها الباهت على الزجاج، وشاهدها تراقبه.

- " نعم. مراقبة الحياة ليست مخيفةً مثل معيشتها."

خبطت شعره ولامست النافذة بأنفها.

- " مراقبة الحياة عبر الزجاج،" قالت. وبقيت معه.

ضحكا وقتها كثيرًا. حتى كلبهما ابتسم. بالتأكيد لم يكونا قد عرفا، لم يكونا قد قدرّا الزمن، والمكان.

***

كان نصف نائم في مقعده حين دخلت ماري الكوخ راكضةً.

- " تعال إلى الخارج،" قالت. " أسمعُ شيئًا."

وضع كأسه وتبعها. استقبله الليلُ، والنجوم في كل الفضاء. شبحٌ أسود اللون كان يقطع الهواء فوق رأسيهما، ويطلق نداءً غامضًا.

- " أليست هذه بومة ؟" همستْ.
- " لا أدري،" ردَّ هامسًا أيضًا. " جائز."

جاء النداء ثانيةً، من وراء الشلال هذه المرة ، هنـــاك عند الغابة. صوتٌ حزين، هكذا فكّر سايمون. صوتٌ محزون شجيّ شقَّ طريقه عبر حوائط دفاعه فـــراح يتذكر طفلتهما – طفلتهما تقريبًا. كانوا ســـيدعوانها " كيت"، اشتريا ملابس أطفال، ورسما الخطـــط. بـــلا جدوى. لم تعد ماري تتحدث عنها أبدًا. لم يصبح أبًا، لكن ذلك لم يعد مهمًّا الآن. حتى وقتها، لم يكن الأمر مهمًّا جدا. الأشياء كانت مرتبكـــة، " كيـــت" كانـــت محض احتمال. أُخِذَت منهما. الكوخُ كـــان احتمـــالا آخر، فرصةً، ربما فرصتهما الأخيرة. لا يريد لتلك الفرصة أن تؤخذ منهما أيضًا.

- " أعتقد أنها كانت بومة." قالت ماري.

نظر إليها، تألقت عيناها في ضوء القمـــر. أراد أن يقبلّها. تمنى لو لم يترك الخمر في الكوخ.

- " أعتقد ذلك أيضًا." قال.

لمس يدها. فابتسمت ثانيةً.

***

في الثالثة صباحا كفَّ عن محاولة النوم. تسلل خارج غرفة النوم. صبَّ كأسًا آخر من الإســـكوتش. عاد إلى مقعده جوار النافذة. كانت مـــاري أســـدلت الستائر. قام ورفعها، ونظر إلى الخارج صوب الحقل المُضاء بنور القمر. كان السياج شديد البياض، بـــدا سابحًا يطفو في الظلام.

- " هل انتهى كل شيء؟"، سألت قبــل أســبوعين. تذكر جهاز التليفزيون القابع في ركنــه، يغمغــم بأخبار السادسة.
- " ماذا؟ " أجابها، ثم توقف. زلزالٌ آخر في مكان ما جنوب أمريكا. تظاهر بأنه يستمع.
- " هل انتهى الأمر؟"

لم يكن قادرًا على ملاقاة عينيها. رشف من كأســه كما يرشف منها الآن.

لم تتكلم لبرهة. ثم قالت " أظن ذلك."

من خلف السياج ذي الأوتاد لمح شبحًا مظلمًا يحلّق في الهواء. كان الهجومُ مباغتًا، قويًّا بمــا يكفــي لجعــل الكوخ يرتعد، وعالي الصوت بما يكفي لجعله ينكفئ إلــى الوراء، فاندلق الخمر على السجادة.

تصدعّت النافذة طوليًّا من أعلى إلى أسفل. ثم سمع ماري تصرخُ من غرفة النوم.

- " سايمون ؟ ما هذا ؟ يا إلهي! ماذا فعلت ؟"
- " لا شيء،" ردَّ عليها. " شيءٌ ما خبط النافذة. أنا ذاهبٌ لأرى."

كان ضوء القمر خافتًا لكنه ساطعٌ. استغرق ثوانيَ قليلة ليحدد موقع الطائر الجريح. هناك. جوار السياج. راقدا على جانبه، ينتفض بعنفٍ. ركض سايمون نحو المدخل ذي البلاط الحجريّ، وقرفص جواره.

هتفت ماري من باب الكوخ، حبكت قميص نومها ليقيها هواء الليل. وكان شعرها معقوصًا لأعلى.

- " ما هذا ؟ " سألت.

احتوى الطائر بيديه ثم انتصب واقفًا. كان الطائر يرتعد ولم يكن فيما يبدو واعيًا.

- " هذه بومة،" قال. " أعتقد أنها بومة من نوعٍ ما."

أحد الجناحين كان متدليا على نحو رهيب، العظام تطقطق بوضوح، والرأس لم يكن في موضعه.

- " ماذا بوسعنا أن نفعل؟ " قالت ماري فيما تلحق به عند السياج.

هزَّ سايمون رأسه. " لا أعتقد أن بوسعنا فعل أي شيء، أظن أنها ماتت بالفعل."

- " لكنها تتحرك. انظر إليها. ياللكائن المسكين !! فقط انظر إليه."

اهتزت البومة بين يديْ سايمون. فتحت منقارها في ارتجافة أخيرة، ثم توقفت الرعشة. اختبر سايمون النبض بجسدها، لم يكن واثقا أين يضع إصبعه. لكن شيئًا لم يكن هناك على الإطلاق.

- " ماتت." قال

نظر إلى ماري فرأى الدموع بعينيها.

- " لا أظن أنها تألمت طويلا،" قال. " إنها صـــفعت النافذة وحسب، أظنها طارت مباشرة صوب تلك النافذة اللعينة. أعتقد أنها خبطتهـــا فماتـــت مـــن فورها."

مدّت ماري يدها ومسدّت ريش البومة. لا دم هنـــاك. لا قطرة واحدة. نفس الشيء كان مع " كيت". نفس الـــشيء تماما.

- كانت جميلة جدا،" قالت ماري. " هل تعتقد أنهـــا هي ما سمعناها تنادي؟ أظنها هـــي. يـــا إلهـــي، ياللحسرة !"

ثمة شيء في نبرة صوتها أثقل صدره للغاية. كان عليـــه أن يزدرد لعابه قبل أن يمكنه الكلام.

- " سوف نقوم بدفنها في الصباح،" قال." سنأخذها إلى الغابة في الأسفل هناك، ونبحث عن بقعة جميلة وندفنها سويًّا."

نظرت إليه ماري وقالت:

- " نعم، يبدو هذا مناسبًا. فلنفعل."

ألقت لمحةً سريعة إلى الكوخ ثانيةً ثم همست: " وربما أتى أحدهم ليصلح النافذة. إذا قامت عاصفة سوف تطيح بنا."

أومأ سايمون. كانت على حق، لكن شيئًا داخله لم يرد للنافذة أن تُصلح. فقد نال الكثير من مراقبة العالم عبر الزجاج.

- " لا أظن أن عاصفةً ستهب." قال.

وقفا للحظة جوار السياج، ينظران خلال ضوء القمر إلى جسد الطائر بين كفيْ سايمون. تأرجحت ماري قليلا من جانب إلى آخر، كعادتها حين تقدّر الأشياء، ثم لمست ذراعه بأطراف أناملها، انحنت إلى الأمام، ثم طبعت قبلة على خده.

- "سوف أضمُّ السريريْن إلى بعضهما البعض،" قالت، "أنا مجهدة يا حبيبي. هل تأتي؟"

أزاح خصلة من شعرها فوق خدها. "سآتي خلال دقيقة." قال.

- "لا تتأخر."

شاهدها تعود إلى الكوخ، رفع يده إلى البقعة التي قبلّته فيها. ثم أخذ البومة إلى السيارة وأرقدها بعناية على المقعد الخلفي.

- "شكرًا لكِ، " قال. طوى جناحها المكسور برقّة، وأراح ريشها الطويل الغزير قائلا. "شكرًا لكِ."

أخرج كتابه المفضل من تابلوه السيارة. مجموعة من القصص القصيرة لـ هـ. إي. بيتس. وضعه في جيب بيجامة النوم وأغلق السيارة.

عند مدخل الكوخ وقف في الهواء البارد لدقيقة أو اثنتين، ينظر صوب القمر. ثمة بومة تطير عبر المشهد، تنادي نداء حزينا وخافتا.

استدار. دخل إلى الكوخ. ثم أغلق الباب.

***

وجبة إفطارٌ مع "آندي"

- " افتحي فمَكِ يا لوسي"، هكذا قال أخـــي الأكبـــر "آندي"، لكنني لن أفعل. أنا خائفة، لكنني لن أفتحَ فمي مهما قال، ومهما غدا عصبيًّا.

فقد أعصابه صباح أمس. واليوم، برغم عنادي، لم يكن عصبيًّا جدا. ليس بعد، على كلِّ حال. ظَـلَّ لبرهــةٍ يؤرجح ملعقته تحت أنفي كما اعتاد أبي أن يفعـل حـين كنت طفلة صغيرة. لكنه حين وجدني مازلت أرفض، لــم يثُر عليّ ولم يضربني. بل توقف عن أرجحة ملعقته. بعد ذلك هزَّ كتفيه استنكارًا ثم بدا حزيناً، كأنني خيّبت أملــه. هزَّ رأسه وسحب الملعقة بعيدًا عــن وجهــي. " ســوف تتصاعين لقولي يا "لوسي لوكيت"، سوف تتصاعين."

لكنه مخطئ. لن أفعل.

يواصل "آندي" إفطارَه.ولا أريد أن أراه. أنظر إلى الأشياء الأخرى بدلا من ذلك. أرقب البقع على الطاولة، موقد الطعام، الثلاجة، خزائن الأكواب بأقفالها الجديدة الضخمة. "آندي" حوّل مطبخنا إلى فوضى ولخبطة عظيمة. وفعل الشيء ذاته في كافة أرجاء المنزل، ملابسه وكتبه وأوراقه في كل مكان. الوحل على الأرضية من حذائه الطويل، صحون الأمس يُلقي بها في الحوض كما تلقى النفايات، وفي الركن جوار الباب الخلفي يمكنني رؤية جواربه المتسخة.

أكره حال الفوضى تلك. حين كان أبي هنا، كنا دائما نحافظ على البيت نظيفا منظّمًا، وشديد الأناقة. أحبه هكذا. لو تركني "آندي"، سوف أقوم بتنظيف كلِّ شيء فورًا، في هذه اللحظة تحديدًا، لكنني أعلم أنه لن

يسمح لي. وإذا فعلت ذلك بغير أن يقول هو، سأقع في متاعب ضخمة.

الساعة تمضي ببطءٍ شديد. أحدّق فيها وأحاول أن أجعل العقارب تمشي أسرع. أريدها أن تأتي على الوقت الذي يخرج فيه "آندي" إلى العمل. الوقت الذي أصبح فيه نفسي. حين أصبح نفسي سوف أكتب في دفتر مذكراتي من جديد.

أجعل عينيّ تخرجان من البؤرة وأحاول التفكير في لا شيء، لكنني لا أستطيع. أفكر في الوقت، في ساعات الحائط وساعات اليد وساعات الزمن، أفكر في كيف يمكن أن نشاهد الساعة. أبدأ في التفكير في الطعام، ثم بعد ذلك لا أستطيع التوّقف.

- " اللعنة!!" يقول "آندي" ذلك فيجعلني أقفز. أنظر إليه فأرى بعض الطعام ملتصقا بذقنه مع اللعاب.

وبقعة مبتلّة فوق قميصه، لا أريد أن أرى أيًّا من ذلك، فأنظر بعيدًا.

أتمنى لو لم أكن جائعةً إلى ذلك الحد. أنا جائعةٌ كما لم أكن في حياتي كلها.

رفعتُ كأسي وأخذت رشفةً فأصدرت معدتي جلبةً أثناء نزول الماء إلى الأسفل. يسمع "آندي"، ورغم أني لا أنظر إليه، لكن بوسعي أن أشعر بابتسامته العريضة. هو يحسب أن صريرَ معدتي يعني أنني سأفعل ما يريد. يظن أنني سرعان ما سأشاركه إفطاره – لكنني لن أفعل. رغم أني لم آكل أيَّ شيء منذ مدة طويلة، أيام وأيام، ورغم أنني أصبحت أبدو مثل هؤلاء الأطفال الأفارقة الذين نراهم في التليفزيون يتضورون جوعا، لكنني لن أشارك "آندي" إفطاره. إلى الأبد. أنا مثل ذلك الرجل البدين فوق الدراجة البخارية، الرجل الذي اعتاد أن يغني تلك الأغنية التي أحبها أبي :" بوسعي أن أفعل أيَّ شيء من أجل الحبِّ، لكنني لن أفعل ذلك."

أتمنى أن يأتي وقت ذهاب "آندي" إلى العمل. أتمنى ذلك جدا جدا.

***

الثلاثاء.

مفكرتي الحبيبة. لم يضربني هذا الصباح، لكنه يكلم نفسه كثيرا. ليست كلمـــات مفهومـــة، لكنهـــا الكلمـــات المصطنعة تلك التي يستعملها أحيانا. يفعل ذلـــك طـــوال الوقت منذ أن مات أبي، وهذا مخيف. وهو كذلك يـــصيح ويتوعد ويسبُّ كثيرا.

يعيد التأكيد على أقفال الخزانات قبـــل أن يخـــرج للعمل.واشترى قفلا جديدًا، قفلا أكبر للثلاجة. وبينما كان يركبّه أخبرني أنني أصبحتُ جلدًا على عظم، وأنه يشعر تجاهي بقلق شديد. ثم الآن، بعد أن حبسني في غرفتـــي،

قال الشيء الذي أرعبني جدا. وقف في الخارج وقاله بصوت عالٍ، من خلال الباب.

- " تعرفين ماذا يجب عليك فعله يا "لوسي"، لن تبرحي الغرفة الآن، لن تبرحيها حتى وقت متأخر جدا" هكذا قال.

كان يصفّر وهو يغادر المنزل. سمعت الشاحنة تدور ورأيته يقودها إلى أسفل الطريق. والآن، أنا وحدي. تماما.

لا يزعجني أن أكون وحيدة، لكنني أكره أن أُحبس هكذا. حين أُسجن على هذا النحو أشعر أنني على وشك الجنون، حين أفكر أنني لن أعيش طويلا. عيد ميلادي الشهر القادم، لكن إذا لم أخرج من هذه الغرفة بشكل أو بآخر، وإذا لم أجد شيئا آكله، أعتقد أنني لن أصل السادسة عشر.

السادسة عشر.

- " ترقّبي يا "لوسي لوكيت" ، هكذا يقول "آندي" أحيانا. "السادسة عشر على الأبواب."

سوف يلمسني حين يقول ذلك، كم أكره أن يمسَّني.

- " سن الرشد، قريبا جدا،" يقول هذا ثــم يــضحك ضحكته الكريهة.

أعتقد أنني ربما لا أودُّ أن أصل الــسادسة عــشر. أظنني لا أريد أن أصل السن القانونية.

الأربعاء.

يومياتي الحبيبة. أمس كان يوما جميلا. يوما مهمًّا. وجدتها ! وجدت طريقة الخروج من غرفتي.

ما فعلته هو التالي:

انتظرتُ حتى خرج "آندي"، تسلقتُ خارج النافــذة، وضعت أصابعي في الفجــوات بــين قوالــب الطــوب. تحركت بمحاذاة الحافة حتى الماسورة الضخمة في زاوية البيت. كان شيئا خطرا لأن غرفتي مرتفعة جدا، تألمــت أصابعي جدا، وكدت أسقط مرتين، لكن كان لابد أن أفعل ذلك.

بمجرد وصولي إلى الماسورة كان من الــسهل أن أهبط للأسفل. ذهبت مباشرةً إلى شجرة التفــاح الكبيــرة وأكلت ثلاث تفاحات. كنت أرغب فــي المزيــد لكننــي أرغمت نفسي على التوقف بعد الثالثة مخافة أن أُصــاب بالإعياء. بعدها ذهبت للنظر داخل الــسقيفة. الأغــراض التي أردت كانت ما تزال هناك. الحبلُ كان مخبــأً وراء بعض الصناديق، لذلك لن يلحــظ "آنــدي" غيابــه إلا إذا احتاجه، وهذا احتمالٌ ضعيف.

لم آخذ كل صندوق السم قاتل الأعشاب الــضارة. لكنني أفرغت بعضا من محتوياته في منديلي وحسب، ثم

ربطته في حزامي. كنت مرتعبة من فكرة أن يعود "آندي" مبكرا ويمسك بي، لذلك خبأت تفاحتين أخريين في جيبي، ربطت الحبل في كاحلي، وتسلقت عائدةً إلــى غرفتــي. كدت أسقط مرةً أخرى، لكنني لم أســقط، والآن والحبــلُ لديّ، بوسعي الخروج والدخول وقتما أشاء.

خبأتُ الحبل والسمَّ تحت إحدى بلاطات الأرضــية المفكوكة. لو اكتشف الذي أفعله سيقتلني.

***

الخميس.

يومياتي العزيزة. اليوم على الإفطار كنت خائفــة حقًّا أن يلحظ "آندي" الاختلاف. فكرت أنه ربمــا يوجــد مذاقٌ لاذعُ أو شيء من هذا القبيل. راقبته جيدًا – كــان مسرورا لأنني أراقبه – لكن يبدو أنه لم يلاحــظ شــيئًا. أظن أن خُطّتي تنجح.

وأنا أشاهد "آندي" يأكل هذا اليوم، تذكرت الصباح الأول الذي رأيته فيه يأكل ملعقته الأولى من جسد والدِنا. بدا ذلك منذ أمد بعيد. كأنه شهر أو يزيد – يجب أن أبدأ في إبقائك على مقربة مني يا مذكراتي.

كان ذاك اليوم مشمسًا، لـــيس مطيـــرًا مثـــل الآن، أتذكّر حين نزلت من أجل الإفطار، بينما "آندي" جـــالسٌ بالفعل على السفرة. بدا وكأنه ينتظرني. وكان متوترًا.

- "اليوم، هذا هو اليوم يا لوسي الصغيرة،" قال هذا وأجلسني بجانبه. ثم جعلني أشاهده وقد شرع في أكل أبي.

كان يتحدث عن اشتغاله على الأمر لأسابيع، منـــذ ذلك اليوم الذي أحضرنا فيه جرّة رماد الوالد من محرقة الجثث. أمطرت في ذلك اليوم أيضًا، وصرختُ طـــويلا. وضعنا الجرّة على رفٍّ عالٍ في المطبخ، وبعـــدها أقـــام "آندي" احتفالا صغيرا بالشموع وغيرها. كان يتظاهر بأنه

يقرأ مادةً في كتاب، مادةً بلغة مضحكة، غير إني أعتقــد أنه اختلق اللغة.

مراسم الحفل كلها كانت فكرته هو. بدأتُ على مـــا يرام لكن سرعان ما غدت بشعة. لم أرد أن أشارك، لكنه أرغمني، وبعد ذلك كان عليّ الذهاب إلى التواليت للتقيؤ. وحين دخلت فراشي في الليل، أتى إليّ وأخبرنـــي مـــاذا ينوي أن يفعل. ماذا سيفعل بأبي. أخبرني بالخُطَّة.

- " إنها مادةٌ مهمة يا لوسي،" قال. "إنه الشيء الذي فعله الناس في العصور القديمة، قبـــل المـــسيح وقبل كلِّ شيء. حين كانوا يعيشون في الكهـــوف ويصطادون الحيوانات المتوحـــشة بالرمـــاح. إن ذلك يعطيك القوة. يحولّك إلـــى كـــائنٍ خـــاص متميز."

بعد ذلك وبعد أن أنهى عبثه معي، قال:" أريدكِ أن تكوني شخصًا مميزا أيضًا يا لوسي."

في البدء، كنت أظن الأمر كلّه مجرد كلام. أنــتِ تعرفين يا مذكراتي. فأنا غبيّة. أسيء فهم الأمور أحيانا. لكنك تعرفين "آندي" أيضًا، تعرفين كيف يكون. يمكنك أن تدركي كيف وقعتُ في غلطة كتلك. "آندي" يتكلم كثيــرا. وُلدَ تحت فألٍ سيء، أبي اعتاد أن يقول إنه ملعونٌ بلسان أنشط مما ينبغي. يقرأ تلك الكتب، يكوّن تلك الأفكار، ثــم يتكلم ويتكلم ويتكلم حتى تضطر إلى الخروج من البيــت لتأخذ نزهتك المفضلة على النهر وتطعم البطَّ وما شابه. لأنك لو لم تفعل، فمن المحتمل جــدا أن ترتكــبَ شــيئًا شريرا. ربما تأخذ سكين التقطيع الحادّة من دُرْج المطبخ وتطعنه في قلبه، ربما تقتله.

أعرف أنني يجب ألا أفكر بهذه الطريقة، أعلــم أن ذلك خطأ، لكنه اعتاد أن يثير أعــصابي حــدَّ الجنــون. الجنون بالفعل. والآن الأمر أسوأ، أسوأ بكثير لأن أبــي رحل ولم يعد لديّ أي شخص أكلمــه، حــين تهــاجمني المشاعر الشريرة، سواكِ.

كنا نتكلم، أبي وأنا. كان يأخذني لإطعام البطّ أحيانا، وكان يحكي لي قصصا عن أمي، ويخبرني ألا أدعَ "آندي" يدخل تحت جلدي. كان يمسك يدي بلطفٍ، ليس مثل "آندي"، ينظر في عينيّ ويبتسم. كان الحال أفضل كثيرا حين كان أبي حولنا. لأنه يعرف كيف يُعمِل الكوابح وكيف يجعل الأمور أكثر بطأً. الأفكار والأحاديث كانت متباينة بشدة عن خطط "آندي" حين كان أبي هنا.

لكنه رحل الآن، ولم يعد هناك من يضع الكوابح في وجه "آندي". فقط أنا.

***

الجمعة.

مذكراتي الحبيبة. "آندي" في التواليت. وأنا محبوسة في غرفتي، لكن بوسعي سماع لغطه. آمل أن يخرج اليوم للعمل.

حلمتُ حلمًا سيئًا عن أبي الليلة الماضية. حلمتُ أنني عدت إلى البيت من المدرسة ووجدته ميتًّا عند قاع السُّلَّم، عنقه مثنيٌّ ورأسه ملتوٍ تماما. "آندي" كان يجلس على الدرّج ينظر بفزع، وبعدها صحوت وتذكّرت أنه لم يكن حُلمًا. هذا حدث.

صرختُ طويلا. بكيت نهرًا كاملا. أتذكّرُ كيف جعلني "آندي" أجلس معه على الدرج وأنظر إلى الأسفل حيث أبي، وكيف كان يفتعلُ ضجيجا مضحكًا، وكيف أنه لم يبكِ. ربما لم يبك لأن أبي كان يضربه أحيانا. ربما كان ذلك هو السبب. لا أدري.

بعد برهة راح إلى الهاتف وكلّم بعض الناس.

أتذكّر كيف جاءت سيارة الإسعاف وأخذت أبـــي. "وضع "آندي" ذراعيه حولي وأمسكني لمدة طويلة. ربمـــا ساعة. "لوسي، لم يعد هناك غيرك وغيري الآن." قـــال ذلك.

وكان على حق، لأن أحدًا لم يأت لزيارتنا بعد ذلك. كنت أحب أن أسكن على بعد أميال من أي مكان قبل أن يموت أبي، قبل أن ينزع "آندي" الهاتف. أكره ذلك الآن. الأشياء أصبحت عبثية منذ ذلك الحـــين. ليـــست عبثيـــة بمعنى ها-ها، بل شاذة العبث.

لا أظن أن "آندي" افتقد أبي، ولـــو قلـــيلا، لكننـــي أفتقده. أفتقده بشدة. أبي الآن مجرد حفنة رماد في جـــرّة، وإذا أخفقتْ خُطّتي سيستمر "آندي" في التهامه كل يـــوم، ملء ملعقة كل صباح. ويومًا ما سيفنى أبي تماما. سوف يغدو مجرد جرّة فارغة فوق رفٍّ المطبخ.

ذهب آندي إلى العمل. شـاهدته يمـشي صـوب الشاحنة. لم يكن على ما يرام.

***

السبت.

يومياتي الحبيبة. هذا الصباح نزلت للإفطار وكـان "آندي" جالسًا هناك على طاولة المطبخ. بدا مريضًا جـدًّا ومعتوهًا جدًّا. أشفقتُ عليه تقريبا.

- " لوسي الـصغيرة." همـسَ. "لوسـي لوكيـت الصغيرة."

كنت أحب أن يناديني هكذا. جلست على الطاولة.

كان انتهى من إعداد مكونات صحنه الخاص مـن "الكورن فليكس" ، السكر، زجاجة الحليب – لكنه لم يملك

القوة لفتح غطاء جرّة أبي. ساعدته بأن فتحتها من أجله. نظر إليّ وتدلّى فكّه مفتوحًا.

- " هل تشاركينني ؟" سأل.
- " لا،" أجبته. " لكنني لا أمانع أن أساعدك."

بدا سعيدا إلى حدٍّ ما. وكان لابد أن أوقف نفسي من الشعور بالتعاطف معه.

أغمد "آندي" ملعقته في جرّة أبي، وقتها بدأت كل ذرّة من طاقته تتلاشى، لدرجة أنه لم يستطع إخراج الملعقة ثانيةً. راح يبكي.

- " أنا آسف أني حبستك في غرفتك،" قال. "أنا آسف على الكثير من الأشياء يا لوسي. ساعديني أكثر من فضلك."

مددت يدي، جذبت الملعقة ورششت خليطَ رماد أبي وسمٍّ الأعشاب فوق صحن "الكورن فليكس". ثم أضــفت السكر واللبن. ابتسم لي "آندي" بامتنان.

بعد برهةٍ، بدأت أطعمه بنفسي.

***

داخل رَحِمٍ مُنتظِر*

قالتها شقيقتي ثانيةً.

– " الماما المُنتفِخة[1] لن ترغبَ فيكَ."

أخبرتُها من قبل أن قولتَها تلك تصيبني بالغثيان، لكنها لا تكترث. هي لا تكترث مطلقًا. لذلك فكرتُ للمرة الأولى ألا أضيّع وقتي في التفكير فيما تقول. بدلا من ذلك انتظرتُ حتى نامت، ثم مددتُ كلتا يديّ – هذان الذراعان الغبيّان مازالا نحيفيْن جدًّا، قصيرين جدًّا، الكفان والأصابع لم تكبر بما يكفي – ثم أمسكتُ بحبلِها السُّريّ.

* - فازت القصة في مسابقة "بينيزورال" Peninsular
[1] تعبير يعني أم في حالة حمل.(ت)

قبضتُ عليه بيمناي، على بعد شبرٍ من النقطة التي فيها يختفي داخل البطنِ المُنتفخة، لويتُه بيدي اليسرى. قُطْرُ حبلِها السريُّ أعرضُ من حَبلي بمقدار الضّعف، من أجل هذا كانت شقيقتي كبيرة وكنت صغيرًا.

ليس بوسعي فعلُ شيءٍ حيال هذا الأمر. "*طفل، طفلٌ، الحياة غيرُ عادلة*"، هكذا تغني ماما المُنتفخة حين تكون عكرة المزاج، وكانت على حق. تعلّمتُ ذلك مبكرًا حالما أدركتُ أن شقيقتي الشرهة تلتهم الغذاء، ليس فقط نصيبها مما تمنحنا الأم من غذاء وفير، بل نصف نصيبي أيضًا على الأقل.

توقفتُ برهةً ثم نظرتُ إليها، سدّدتُ إليها نظرةً ليليةً واسعة، كانت تطفو إلى جواري. مقلوبة، أو ربما أنا المقلوب. الأمرُ نسبيٌّ كلُّه. هززتُ رأسي وقلتُ في نفسي أنني على وشك ارتكاب خطأ غير محسوب، فشقيقتي الخنزيرة – رغم نومها – هي الأكبر حجمًا، الأكثر قبحًا وبشاعة، وتمثّل أكثر الأشياء تهديدًا لي في فضائي

الراهن، وأعرف أنها تكره معدتي التي تكوّنت حديثًا. حين تفكرون في ذلك الأمر ستجدون كم هو مدهشٌ أنني مازلت أحيا إلى الآن.

كلا، يجب ألا أفعل ذلك، أعلم أني يجب ألا أفعل. لكنني الآن غاضبٌ. الآن نالني ما يكفيني من عبارتها المقززة "ماما المُنتفِخة لن ترغب فيكَ"، أريد قليلا من الترضية، قليلا من الثأر. لذلك سأمضي في طريقي. أحكمتُ قبضتي على الحبل السريّ لشقيقتي الفظّة، ضغطتُ بأكثر ما يمكنني، ثم شددته بعنف.

استيقظتْ وعوى صوتُ عويلها في رأسي. "واء، أنتَ يا حقيبة الحثالة! ماذا بحق الجحيم ..."

أطاحتْ بيديّ بعنف بعيدًا عن حبلها، وركلَ كعبُ قدمها اليمنى جانب رأسي، لكن قدمَها السمينة المبطّنة بكثيرٍ من الشحم لا تؤلم كثيرًا على كل حال.

صرختُ فيها، " أخبرتُكِ من قبل، ليس لديك الحـق في قول ما تقولين. أنتِ لا تعرفين، لا تعرفين المـشاعر التي تحملُها ماما نحوي!"

فَرَدَتْ شقيقتي الفظَّة جـسمها، واحتـوت فراغـي الخاص. كان بوسعها تصفيتي في لحظات، كلانا يعـرف ذلك.

"اسمع أيها التحفة الصغيرة،" قالت. " إذا كنـتَ لـم تلحظ، فأنا أكبر من ضعفيْ حجمك الآن، ويزداد حجمـي طيلة الوقت. والسبب الوحيد في أنكَ مازلتَ تحيـا حتـى الآن هو أنني لا أريد أن يطفو جثمانك حولي هنا ويلوث سوائلي وغذائي. هل استوعبت الأمر؟"

أفهم ما تمتاز به عني، غير أني قررتُ المقاومة. ما الذي يمكن أن يحدث؟! أبديتُ ما يمكن أن يبدو عِـصياناً، غير أني أومأتُ برأسي.

" هذا جيد، والآن دعني أخبرك بشيء آخر. أشكُّ في أنك ستنجو في عملية الولادة – أتمنى بإخلاصٍ ألا يحدث هذا – لكن إذا لمستَ حبلي مجددًا، إذا فقط وضعتَ عليه خِنصرَك الضئيل القذر، أضمن لك أنك لن تعرف طريقك أبدًا، أرجو ألا يصل الأمر إلى ذلك."

ركلتني ركلةً ممتازة. في ذات الموضع. لكن على نحوٍ أعنف هذه المرة.

- "اتفقنا أيها الدمية العتيقة ؟"
- " على أي شيء؟"
- " هل كلامي واضح؟"

لم أجب بالسرعة المناسبة، لذا ركلتني ثانيةً. سمينةً كانت أو غير سمينة، فإن قدمها آلمتني هذه المرة. رأيتها تسحب ساقها بعد الركل للمرة الرابعة.

- " حسناً، نعم كلامك واضح. الآن دعيني وشأني."

ابتسمتْ وأظهرتْ ببطء لثتَها القذرة. لو كنت أفتقر إلى المعرفة لأقسمتُ أنها تمتلك مجموعةً كاملة من الأسنان.

- " شيءٌ آخر ..."
- " ماذا؟"
- " إذا أردت لعضوك المسكين هذا ألا يُمضَغ، فالأفضلُ لكَ أن تُبعدَ هذا الشيء المقرف عن وجهي!"

حركتُ يديّ وغطيّت نفسي. لا أعتقد أن الأمر سيصل بها إلى هذا الحد – لكنني تعلّمت من خبرتي السابقة أن من الأفضل أن تكون آمنا بدلا من الندم. حاولت أن ألتفّ بحيث أعطيها ظهري، لكن الأمر

لم يكن سهلا. كنا في بداية شهرنا الثامن ولم يعد هناك مكانٌ للمناورة مثل ذي قبل.

وبالتدريج عدنا إلى حال تجاهل أحدنا الآخر كالعادة.

تكوّرتُ وأنصتُ للضجيج بالخارج. الماما المُنتفِخة لديها مجموعة أصدقاء مدعوين على القهوة، يأتيني صوتها المكتوم عبر الجدران. أحبُّ صوتَها. حين أولَد أتمنى أن تحبَّ صوتي. أتمنى أن تحبَّني. أتمنى أن تحبَّني أكثر من شقيقتي الخنزيرة.

ماما المُنتفِخة تضحك لأن جنينيْها يخبطانها من الداخل. رَحِمُنا يترجرج، وثمة شخصٌ آخر يضحك، وآيادٍ تضغط على بطنها فتؤلم جانب جبهتي حيث ركلتني شقيقتي البشعة. قاومتُ نفسي كيلا أحكَّ موضع الألم. هي تراقبُني، أعلم أنها تراقبُني، ولن أمنحها الشعور بالرضا.

أغمضتُ عينيّ وحاولت أن أستريح، لكن رأسي كاد ينفجر من فكرة أن أمي لو أكملتْ شهور الحمل، سـيكون أمامي شهر آخر في هذه الحال، وللحق، أنا لستُ واثقًا أن بوسعي تحمّل ذلك. شيءٌ قاتل أن تُسجن في فراغٍ محدود مع عدوّك اللدود. في المرات شديدة السوء فكـرّت أن أعضَّ حبلي الخاص وأنهي الأمر كلّه قبل أن يبدأ.

وقتها أفكر في "البنت". البنت التي تعدُّ نفسها "لتولد شرسةً". تلك البنتُ هي سـري الخـاص، منبـع قـوتي الداخلية. إنها السبب الذي من أجله سأتجاوز كـل تلـك الأوقات المظلمة.

حين أتذكرُها أعدل عن فكرتي.

تعلمون ؟ الأمور لم تكن دائما هكذا. أتذكر الأسابيع الأولى من الحمل، لا تبدو الآن شديدة السوء – كانـت أفضل من الآن على كل حال. صحيح أن الطفـوَ داخـل كائنٍ بشريّ آخرَ لم يكن قط فكرتي عن البهجـة – لكـن

على الأقل في تلك الأيام المبكّـرة كـان هنـاك متـسّع لتتحرك، لتتمدد، لتضرب بأطرافك هنا وهناك. لـم أكـن أعرف أن الأمر وقتها أفضل، لكنه كان أفـضل. فأنـت تتعلم كلما عشت أكثر. ولكن للأسف فبينما تعيش وتـتعلم فإن حجمك يكبر أيضا.

هناك أغنية أخرى تلخّص ذلك الحال بالنسبة لـي، أغنية تغنيها الماما المُنتفِخة، هي تحبٌّ موسيقاها وتغنيهـا أثناء تنظيف البيت. تلك الأغنية القديمـة عـن التاكـسي الأصفر الكبير. تؤديها على نحو لا بأس به – ليس تـام الإتقان – لكن بما يكفي لوضوح القصيدة والنغمـة. " ألا يبدو مسرعا على الدوام، حتى أنك لا تستوعب قيمة مـا امتلكت إلا بعد أن يذهب؟"

كاتبُ تلك الأغنية يعرف كثيرًا. صدقوني، فبمجرد أن تـضرب ذلـك الـشيء ذي الـسبعة أشـهر، فـإن

الكلوستروفوبيا[1] تحتلُّ قلبَك فورًا. خاصةً إذا كنتَ مُجبرًا على مشاركته الحيّز نفسه.

تلك هي المشكلة الكبرى للشقيقة البشعة حسب ظني. فهي لا تجيد فنَّ المشاركة.

تعرفون؟ حين أولد سأتعقّبُ ذلك الرجل (أراهن بعُمري أنه ليس امرأة) الذي صمّمَ الرَّحِم، وسوف أضعه أمام بعض الحقائق الأساسية. لأنه ارتكب عدّة أخطاءٍ برأيي المتواضع. لا أعني ضيق الحيّز وحسب. بل أيضًا نُدرة وسائل التسلية (كتلك التي تقدّمها شركات الطيران على طائراتها مثلا) مما يُعدُّ جريمة في تلك المرحلة. يا يسوع، أليس عجيبًا أن كلَّ جنين قابلته كان مختلاًّ نفسيًّا؟ ماذا تتوقع حين لا يكون هناك ما تفعله في تلك الأرحام سوى التصنّت على الأصوات المكتومة لخفقان قلوب الأمهات المنتفخات، أو ربما عد قرقرات المعدة؟ وطبعا يمكنك قياس كم كَبُرَ ذراعك وساقك، أو يمكنك أن تمرَّ

[1] - الخوف من الأماكن الضيقة. (ت)

بإصبعك على فتحة اليافوخ لتستحثَّ مخّك وتوقظه، لكــن تلك الأفعال سرعان ما تمر. حتى نشوة امتصاص إبهامك التي تحصلّها أخيرًا(بعد أن ينمو لك فمٌ ليَمتصَّ، وإبهــامٌ ليُمتَص) لا تستمر طويلا.

المرة الوحيدة التي خفَّ فيها حال الضَّجر حين كنا جنينيْن في شهرنا الخامس ولم تكن شقيقتي قد تحولّت بعد إلى ذلك الوحش. الماما المُنتفِخة أخذت ثلاثتنا إلى عيــادة الطبيب وظللتُ طوال مدتنا هناك أتسمع إلى الأصــوات. يروحون ويجيئون. الخنزيرة لم يبد عليها أنها لاحظت، لم يدهشني ذلك. فهي ليست ممن يمكن أن تعتبرهم مرهفــي الحس.

كنت هناك، أطفو هنا وهنــاك منــشغلا بــأموري الخاصة حتى سمعت فجأةً :" هذه المــرأة بلهــاء، بلهــاء تماما. هذا قدري..."

لم يكن صوت الخنزيرة. النبرة مختلفة، الصوت مختلف. ثم سمعت واحدًا آخر. " إنه مظلم، مظلم جدًّا. ربما أمكنني أن أحفرَ نفقًا..."

استغرقتُ برهةً لأستوعبَ ما يحدث، لكنني فهمت في النهاية. المكان لابد مكتظٌّ بالأمهات المنتفخات، العشرات منهن، وكلما مرّت واحدة منهن متباطئةً على مقربة منا أسمع قرقرة جنينها عن طريق موجات الفكر. تعوّدتُ على الكلام القذر الذي تطلقه شقيقتي– كان عادةً عن الطعام أو عن عروسة "باربي" التي سمعتْ عنها في تليفزيون الماما، أو عن مدى كراهيتها لي – لكنني لم أتخيل، حتى ذلك الوقت، أن بوسعي التقاط موجات أخرى لأجنّة في الخارج كما حدث. كان محفّزًا طيّبًا لكنه في ذات الوقت مخيفٌ جدًّا. صدقوني ثَمَّ الكثير من اللغط الجنينيّ هناك.

كان هناك جنينٌ ظلَّ يكرر نفس القولة مراتٍ عديدة، نفس الصرخة العجيبة ذات النبرة العالية التي

تأتيني عبر الذهن . " أيها المسيح في عليائهِ .... ليس من مكان يكفي ثلاثة! يا يسوع، المكان لا يتسع لثلاثة!!!" ظل يكررها مراتٍ ومرات، وكأنه يستنجد. أذكر أنني فكــرت وقتئذ أن وضعي، رغم كل شيء، لم يكن بهــذا الــسوء. شيء واحد مؤكد، أن أمَّه كانت في لحظة بهجــة حــين انبثق هو وإخوته.

عندئذ سمعتُها. البنت. سري الحميم جدًّا، البنت التي سأعثر عليها يومًا. أحببتُ صوتَها فورًا لأنها كانت تغني الأغنية التي كانت ماما تغنيها أحيانا – "ولدنا كي نكــونَ شرسين" – يأتي صوتها ليغطي على صوت الــضربات العالية والخافتة لأضلع أمها.

" خُذْ دراجتك البخارية واركض
اتجه صوب الطريق العام
فتّشْ عن مغامرة
ومهما يحدث في طريقنا
اجعله يحدث يا عزيزي

عانق العالم بحبٍّ
أطلقْ كلَّ رصاصتك مرة واحدة
وفجرّها في الفضاء
مثل طفلِ الطبيعة الحقيقيّ
نحن وُلدنا،
وُلدنا كي نكون شرسين.
بوسعنا أن نتسلّق عاليًّا
لا أريد أن أموت أبدًا.

كنت منوَّمًا مغناطيسيًّا. كنت أتخيلّها ترقص في الرحم، وكنت أتوق بكل قوة أن أجاور البنت تلك، طفلة الطبيعة الحقيقية، بدلا من أن أُسجَن مع هذه الخنزيرة. هي وأنا، بوسعنا أن نحصل على الكثير من البهجة سويًّا.

تعرفون؟ حين أجدُ طريقي، يوما ما، سنحصل على بعض البهجة سويًّا. مهما قالت شقيقتي الخنزيرة، سوف أُولَد، سأحيا وسوف تحبني الماما، وسوف أحبها بالمقابل. يوما ما حين أغدو قويًّا وصحيحًا – حين أغدو كبيرًا!!!!!!

– سوف أتعقّب تلك الفتاة وأريها أن كلينا خُلق من أجل الآخر. نعم. سوف يجد كلٌّ منا الآخر، وسوف نقود دراجتينا البخاريتيْن صوب الطريق العام ونفعل كلَّ شيء جنونيّ من أجل أن نجعل تلك الأغنية حقيقةً.

هذا حلمي، وذلك ما سوف يكون.

صدقوني.

***

عن المترجمة:

فاطمة ناعوت: شاعرة ومترجمة مصرية. تخرجت في كلية الهندسة جامعة عين شمس، قسم العمارة.

لها ثلاثة دواوين شعرية :

- "**نقرة إصبع**" –الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة كتابات جديدة .
- "**على بُعْد سنتيمتر واحد من الأرض**" – في طبعتين عن دار "ميريت" ودار "كاف نون".
- "**قطاعٌ طوليّ في الذاكرة**" – الهيئة المصرية العامة للكتاب 2003.
- أنطولوجي عربي "**أحزان حمورابي**"(مشترك) – مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان 2003.

في مجال الترجمة لها :

- أنطولوجي مُترجَم عن الإنجليزية "**مشجوجٌ بفأس**" – بتقدمة للشاعر حلمي سالم – سلسلة آفاق عالمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة 2004.
- " **فرجينيا وولف: جيوبٌ مُثقلةٌ بالحجارة**" مراجعة وتصدير د. ماهر شفيق فريد، المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، مصر.

ولها تحت الطبع ديوانا :" **نصف نوتة**"، و "**فوق كفِّ امرأة**"، وديوان شعر بالإنجليزية بعنوان " *Before the School Shoe Got Tight*".

ولها قيد الإعداد كتابٌ نقدي بعنوان "**دائرة الطباشير**".

الموقع على الإنترنت

www.geocities.com/fatima_naoot

فهرس